روت لي الأيّام

روت لي الأيّام

إملي نصرالله

استثمار القصص: **ميرنا داغر**

تصميم الغلاف: **مها نصرالله**

دار الإبداع
الحرف الذهبي

هاتف : ٠٠٩٦١ ١ ٨٨٤١٣٥
٠٠٩٦١ ١ ٨٩٧٤٤٦

خلوي : ٠٠٩٦١ ٣ ٣٠٤٠٩٢
٠٠٩٦١ ٣ ٣٥٤٦٨٨

فاكس : ٠٠٩٦١ ١ ٨٩٧٤٤٦

ص.ب. : ١٩/١٩٥٤

© جميع الحقوق محفوظة للكاتب

طبعة ثامنة

2013

تنضيد الحروف : دار الإبداع
التّنفيذ التّقني : دار الإبداع
لوحة الغلاف : مها نصرالله

ISBN 978-9953-444-67-3

e-mail: info@d-ibdaa.com
e-mail: daribdaa@hotmail.com
http: //www.d-ibdaa.com

حسّونُ الغربة

كانَ يُمكن لهذه الحكايةِ ألّا تُبْصرَ النّور، وتبقى في مثواها، في تلك الثلّاجة البعيدة، من بيت في المهجر. لكنَّ الرّجل رواها لي ببساطة، ولم يَكُنْ يَقْصد الحكاية، بقدر ما شاء أن يُدخلَني عالمه، ليستشيرني في أمر حَيَّرَهُ، وقد لخّصه في سؤال:

– هل يجوز أن يبقى الحسّون مدفونًا في الثلّاجة أكثر من عشر سنوات؟

أَصْغيتُ إليه حتّى فرغ من حكايته، وأفرغ جعبة الأسئلة، ولم أَتَقَدَّمْ بأيِّ جواب، فكيف بالحلّ!... ذلك أن مُشكلةً كهذه لم يسبق أن عَرَضَتْ لي، لا من قريب ولا من بعيد. ولم أقرأ عنها في الكتب، وقَدَّرْتُ أنّ أمرَ البَتِّ فيها يعود إلى صاحبها وحده...

– هل سَمِعتَ يا صديقي؟ أنتَ، وحدَك، تستطيع أن تبتَّ في الأمر.

– وَلكنّني حائر! لن أعودَ إلى البلاد هذه السّنة، ولا السّنة التالية. وقد أقسمتُ على أن أُعيدَ هذا الطائرَ المسكين إلى أرضه! أجل هناك قسَمٌ قائم بيننا، فكيف أُحَلُّ من قَسَمي؟

كنتُ أقوم بزيارةٍ لهذا القريب الّذي هاجر قبل سنوات إلى البلادِ الرابضةِ عند أقدامِ القُطبِ الشّماليّ. وقد اغْتَنَمَ الفرصة ليَرويَ لي حكايته الّتي لم يجرؤ أن يَعْرضَها أمام قريبٍ أو صديق، خَشْيَةَ أن يسخر منه، أو يَتّهمه بخللٍ في الدّماغ، فلا يقدّر اللّوعةَ الّتي تلذع شغاف قلبه:

–«حين غادَرْتُ البلاد، حَمَلْتُ، فيما حَمَلْت، حسّونًا كان رفيقَ الأصباحِ والعشايا، وكنتُ مولعًا بتغريدهِ فلا أشعرُ بأنّ النّهار طَلَعَ على الكون ما لم أَسْمَعْهُ يعلنُ ذلك بصوته الرّخيم..

هَرَّبْتُهُ إلى داخل حدودِ البلاد الجديدة، والّتي يَمْنَعُ قانونُها القادمين إليها من أن يُسَرِّبوا إليها بذرة خردل، أو حَبَّةَ كرز.

لكنّني أَخطأتُ الحساب، وكنتُ أَجْهَلُ قَسْوَةَ الطّقس، فحاولْتُ أن أُعوِّض طائري من البرد القارس، بأن أحيطهُ بكلّ وسائلِ الدفء. غير أنّه رفض جهدي لإنقاذه، فاستيقظتُ ذات صباح، لأجدَ جُثَّتَهُ الصّغيرةَ هامدةً في أرضِ القفص.

لا أستطيعُ أن أعبّرَ لكِ عن حزني، إزاءَ ذلك المشهد؛ ولا أقوى على وصفِ ما آنتابني من أحاسيسَ بعد فراق عصفوري العزيز؛ فقد حملتُهُ معي، ليكونَ أنيسَ وحشتي، ويُخفِّفَ من كربتي، ويحفظَ طَعْمَ الأَرضِ الدافئةِ في عروقي، ولكنّه رحلَ باكرًا وتخلّى عنّي.

قلت لك إن الطّقسَ قتله. هذا ما خطر لي في بادئ الأمر. ولكن، وبعدما أخذت أتقدّم خطوة خطوة، فوق

أرض غربتي، وبدأ صدأ الأيّام يترسّبُ في المفاصل، ألمًا لا يُفارق، وبعدما تَعَمَّقْتُ في تَذَوُّقِ طَعْمِ الغربة، صِرْتُ مُقْتنعًا، بأنّ الطقسَ لم يَقْتُلْه، بل قَتَلته تلك الغربةُ الشّرسة، وقد ظَهَرَ مفعولُها بسرعة، لِما فُطر عليه المسكين من رقّة الإحساس، وشفافيّة التّكوين. وهذا ما تفعله بنا، نحن البشر، ولكن على جرعات.

وأَقسمتُ، وأنا واقفٌ أمامَ القفص، في تلك الصبيحةِ الباردة، بأنّني لن أَدفنَهُ في تراب الغربة، بل سأحملُه معي، لدى أوّل زيارةٍ أقومُ بها إلى الوطن، لأدفنَهُ في تراب الضّيعة».

صَمَتَ مُحَدّثي. وتابَعْتُ تَصَوُّري لردودِ فعل أقارِبِه وأصدقائه، عند سماع الحكاية. وأدركتُ معنى موقِفِهِ والسَبَبَ الّذي دفعهُ لأن يُخبِّئ الحسّونَ في الثلّاجة، ومعه يُخْفي السرَّ الغالي، فلا يبوحُ به، حتّى إلى أقرب المقرّبين إليه.

وها هو ينتظر مساعدتي. ينتظر رأيًا يُريحُهُ من عذابٍ أوقعَ فيه نفسَه، وشَبَكَةُ بها كخيوطِ عنكبوت؛ وكأنّما وعدهُ للحسّون هو نذرٌ لكبيرٍ من القدّيسين أو الأولياء، ومن الحرام أن يُخلفَ به.

وشعرتُ بأنّني ملزمةٌ باتّخاذ موقف؛ فهو آختارني وحدي، ليطرحَ بين يديَّ سِرَّه، وها هو ينتظر جوابي. اسْتَنْفَرْتُ شجاعتي وقلت له:

– لا بأسَ إنْ بقيَ في الثلّاجة، بآنتظارِ عودتِك إلى الوطن.

–وتظنّين أنّه لن يَعْتَبَ عليّ؟

أجبتُه، وأنا أجتهدُ لأبقى في مناخ الجِدّ:

– بل حوّل العتب على الظروف، وآنتظرْ حتّى يأتيَكَ الفَرَج.

وقبل أيّامٍ، رجعت إلى لبنان وقصدتُ القرية، في زيارة. فهرعَتْ جارتُنا «أم سعيد» لتزفّ إليّ الخبر:

– جارنا «مروان» عادَ من المهجر.

– «مروان»؟... سألتها غيرَ مصدِّقةٍ ما تسمعُهُ أذناي، فقالت مؤكِّدة:

– بل إنّه عَلِمَ بقدومك، وهو آتٍ لزيارتك.

رحَّبْتُ به، وأحضرتُ له فنجانَ قهوةٍ مطيّبة بحبِّ الهال، مثلما يُحِبُّ القهوة، جارنا القديم. ورُحْتُ أسأله عن أحوالِ النّاس المغتربين، وما يقولونه عن حالنا. وأسئلة كثيرة، تراكَمَتْ بيننا، قبل أن أطرح عليه السّؤال الجوهريّ:

– هل أنت عائد لتفيَ بالقسم؟

– أجل! قال لي ثمّ تابع:

– كان عليّ أن أتّخذ القرار بنفسي. وفكّرتُ بأن الشّغل، والحياة اليوميّة الرتيبة، يَلعقَان حيويّتي، يومًا بعد يوم، وكلّما اسْتَسْلَمْتُ لهما أرجأتُ الموعد، ومع التّأجيل، أُطيلُ عذابَ الضّمير.

– والحسّون، هل صَحِبتَهُ معك؟

– طبعًا! إنّما أرجوكِ أن تُبقي السرّ بيننا. فالجميع يعلمون بأنّني رجعتُ كي أصلّحَ المنزلَ الّذي صدّعه القصف، وأهْتَمَّ بالأرزاق، وأكسبَ مؤونةً من الدفءِ تُرَافِقُني إِلى صقيع المهجر. إنّما الدافعُ الحقيقيّ لعودتي فأنت وحْدَك تعرفينه. وأنا مرتاح الضّمير، إذ تمكّنت من أن أنقلَ حسّوني وأغرسَهُ، حيث نَثَرَ أناشيدهُ الأولى، هناك عند كتف البستان. وبعد أيّام، أعود إِلى مقرّ إقامتي، لكنّني هذه المرّة سوف أتقيّدُ بقوانينِ البلاد هناك وأُنفّذُ أدقَّ تفاصيلها.

– أي لن تُهَرِّبَ حسّونًا آخر؟

– مطلقًا! فقد تعلّمتُ درسًا مُهمًّا تُذَكّرُني به غُربتي، مع كل نقلةِ قدم. وإذا كنّا نحن البشر قد تغلّبنا على الصّعوبات، وتعلّمنا أن نتكيّف مع البيئة الجديدة، فإنّ الطّيور والحيوانات، وهي وثيقةُ الارتباط بالأرضِ الأمّ،

بالطّبيعة، فإذا اقتُلِعَتْ من حضنها، أصبحت مثل طفلة نزعوها من حضن الأمّ، وطرحوها في العراء.

لم أُضِفْ إلى تلك الخلاصة أسئلة جديدة. فإنّ جارنا «مروان»، كان قد آخْتَصَرَ العمر، في تلك الرّحلة.

والحسّون لم يَعُدْ، بالنّسبة إليه، طائرًا وحَسْب، بل أصبحَ رمزًا لتلك النّفوس التّائهة، والمقتولة في أرض الآغتراب، وهي تَصْرُخُ في أذنيه، وفي لاوعيْهِ طوالَ ساعات اللّيل والنّهار:

– إرِوِ ظمأي. أَطْفِئْ حُرْقَتي، وآنتزعْ نقطَة النّارِ من أحشائي..

أعِدني إلى أرضي..

أعِدني إلى أرضي...

الجبّار

حكايتُهُ صورةٌ مُعَلَّقةٌ على الجدار.

صورةُ شابّ في الخامسةِ والعشرين من عمره، ربع القامة، أسمر اللّون، لوزيّ العينين..

ألصورةُ في غرفةِ العائلة، مكبَّرةٌ عن نسخةٍ أصغر، مرسومة بالأبيضِ والأسودِ.

ألعمُّ «جبران»، يرتدي بذلةً رسميّةً أنيقةً، وقميصًا أبيض، ترتفعُ ياقَتُهُ المنشَّاةُ مثلَ آبتهالٍ مَنْسيٍّ عند شمخةِ العُنُق. والشعرُ مفروقٌ في وسطِ الرأسِ، إلى شطرينِ متساويين، موضة ذلكَ الزّمنِ.

في وقفته تلك كلُّ الإباءِ والشَّمم. إحدى يديهِ تستندُ إلى خصره واليدُ الثّانية تمسكُ قمر وَرد، ومن جيبِ الصّدريّةِ يتدلّى المنديلُ المطرَّز المخرَّم.

أَمَّا التَّعبيرُ المرسومُ فوقَ الوجهِ فغامضٌ غموضَ تلك اللّحظة، لا ضاحك هو، ولا عابس، وكأنَّما نظراتُهُ تخترقُ حُجُبَ الغيب، لتكشفَ مسبّقًا ما تُخبِّئُه الأيّام.

عشتُ مع صورة العمّ «جبران» سنواتِ طفولتي. وكان جدّي يجلسني في حضنِه أو نجلسُ معًا فوق كرسيّه الخاصّ، مقابلَ الصّورة، فيَحكي لي عن أخيه الأكبر، ويُعدِّد صفاتِه.

كان يحكي، ويبكي، وتسيلُ عاطفته دمعاتٍ حارّةً تسقط على يديّ، فأمسحُها خفيةً عنهُ، حتّى لا أوقظه وهو سارح في أفكاره، مكرّرًا الحكاية، ليغرِسَها عميقًا، في صدري:

«كانَ أخي بطلًا جبّارًا. حملَ عروسَهُ وسافرَ إلى البلادِ الجديدة. طموحه لم يَدَعْه يستريحُ يومًا، وكان طموحُه لا يُحدّ و...»

ويتابع:

– قالت له أمّي:

– إبقَ معنا، لتعتنيَ بالأرزاق، وتعيشَ مثلنا، من خير الأرض.

فأجاب:

– الأرضُ هناك أَرحَب...

كبرَ على حضنها وبين يديها صارَ أطولَ منها قامة. صار رجلًا. ولم تعُد تقوى على ربطِهِ بحزامِ «مَرْيولها»، فسافر.

وأنا، كان لي من العمرِ خمسَ عشرةَ سنة. سافر، وأمّي بكَت لِسفره أيّامًا. وبكَتْ مثلما تبكي كلُّ أمّ تغادرها

فلذةٌ من فلذاتِ الكبد. وجاء يومٌ، تَبَدَّلَتْ فيه نغمةُ البكاءِ عند أمّي.

سافَرَ العمّ «جبران» على ظهرِ الباخرة الفخمة، والّتي لم تَعْرِفْ لها البحارُ مثيلًا حتّى ذلك التّاريخ...

كان ذلك عام ١٩١٢، والسّفينة البريطانيّة «تيتانيك» تُدشِّنُ أَوَّلَ رحلة تقومُ بها إلى أميركا.

«التيتانيك» أفخمُ وأكبرُ سفينةٍ مخرتٌ عبابَ البحر. قيل إنّها كانت مُحصَّنةً ضدَّ الغرقِ، أي ضِدَّ تسرُّبِ الماء إلى داخلها. وكان قبطانها يفخر بأنَّها تحوي ستَّ عشرةَ قاعةً محصَّنة، كما كان يفخر باسمها الفريد «تيتانيك» أي «الجبَّار» أو السّفينة الّتي لا تُقْهَر.

قبيلَ منتصف ليل ١٤ – ١٥ نيسان، كانت السّفينة قد عَبَرَتْ المحيطَ الأطلسيّ، ووصلت إلى نقطة تَبْعُدُ مئةً وخمسينَ كيلومترًا عن الشّواطئ الجنوبيّة للمقاطعةِ

الكنديّة المعروفة باسم «نيوفاوندلانْد» أو «الأرض الجديدة»... وكانت تسير بسرعةِ واحد وأربعينَ كيلومترًا في السّاعة، وهي سرعةٌ قُصوى نظرًا لحالةِ المحيطِ في ذلك الوقتِ من السّنة، إذ يبدأ ذوبان الجليد خصوصًا جليدَ القطبِ الشماليّ.

وبينما كان الرّكّابُ نائمينَ، والكونُ من حولهم هادئٌ ساكن، إذا بهم يسمعونَ دويًّا مُخيفًا اهتزّت له أركانُ السّفينة.

لقد اصطدمت «التيتانيك» بجبلٍ جليديّ، نَهَشَ مساحةَ تسعينَ مترًا من جانبِها الأيمنِ ومزّقَ خمسًا من القاعات المحصّنةِ ضدَّ تسرُّبِ الماء.

بدأتِ السّفينةُ تغرقُ بسرعة، وفي تمام السّاعةِ الثّانية وعشرينَ دقيقة، قُطِع كلّ أملٍ في إنقاذها، ولم يُفِدْها أن تكون السّفينةُ الأميركيّة «ليلاند» على بعد آثنين وثلاثينَ كيلومترًا منها، إذ إنَّ جهازَ الرّاديو كان مُعطّلًا.

بعد مضيّ ساعةٍ وعشرينَ دقيقةً على بدءِ الغرق، سارعتْ إليها السفينة «الكارباتيّة» «كونارد» وحاولتْ إنقاذ من أمكن إنقاذُهم... وبلغ عددُ الضّحايا سبعَمئة وأحدَ عشرَ راكبًا قضوا غرقًا في مياه الأطلسيّ، وفي المنطقةِ المحاذية للسّاحل الجنوبيّ «للأرض الجديدة».

وكان العمُّ «جبران» بين أولئك المفقودين...

– ولكن... يُتابع جدّي:

– كان أخي سبَّاحًا ماهرًا، وشيخَ شباب، شدَّتْهُ النخوةُ، وتحرّكتْ فيه المروءة الجبليّة، فراحَ يحملُ الأطفالَ والنّساء، وينقُلُهُم إلى زوارقِ النّجاة.

كان يعملُ ضدّ عوامل الطّبيعة القاسية، وعكْسَ الرّياحِ الشّماليّة، والمياهِ المختلطةِ بجليدِ الجَبل الّذي رسا بثقلهِ فوق حطام السّفينة.

كمْ طالَ وقتُ قيامه بعمليات الإنقاذ؟... لستُ أعلم،

ولا أحد يدري كيف تمكَّنَ رجلٌ واحدٌ من أن ينقذَ بمفرده ثلاثينَ شخصًا، بينهم عروسُه الحلوة.. ثمَّ يختفي.

هل تلاشتْ قواه بسببِ الصّقيع والإرهاق؟ هل قذفه تيَّارٌ معاكسٌ فغرق؟ أم أنّه حاولَ أن يسبحَ، فتجمّدَتْ أَطرافُه؟...

أسئلة كثيرةٌ راودتنا، ولم نعثر لها على جواب.

بلى، جاءنا جوابٌ واحِد ولكنْ متأخّرًا وكان من أحد رفاق الرّحلة. فقد كتبَ إلينا يقول:

«إبنكُم جبّار. اسمُهُ يقترن باسم «التيتانيك» وسوفَ نَظَلُّ نذكرُه ما ذُكِرتِ المروءةُ والشّهامةُ والتّضحية.

إنسانٌ واحدٌ جعلنا نتساءل عن قيمةِ الحياة؟ وما إذا كانت غير تلك الوقفةِ الأبيَّة، في اختيار الشهادةِ لإنقاذ الآخرين، وآفتدائهم. وحتّى أولئك الّذين لا تَربطكَ بهم أيُّ علاقة إنسانيّة».

وكتبَ رفيقُ الرِّحلة كلامًا آخر فهمنا منه أنَّ «الجبَّار» رفضَ أن يحتلَّ مقعدًا على أحد زوارقِ النّجاة، وقدَّمهُ لشخصٍ آخر، محاولًا الوصولَ إلى الشاطئِ سباحةً.

أمَّا العروسُ الّتي أنقذها، فقد نُقِلَتْ إلى مستشفى للأمراضِ العقليّة.

ويتابع جدّي:

«ثمَّ جاءَ ذلكَ اليوم الّذي تبدَّلتْ فيه نَغْمَةُ البكاءِ عند أمّي. فأصبحتْ عيناها سماء شتائيّة، ولم يَعُدْ لها أملٌ في الحياة.

بلى.. كنَّا نحن، صغارَ العائلة، نَشْغَلُها عن أحزانها بعضَ الوقتِ ولكن ما إن يَستفيقُ الشّوقُ الكامِنُ في قلبها، وتَهْدُرُ العاطفةُ بين حنايا الصّدر، حتّى تَلْتَهِب عيناها، وتدور على نفسِها دورانَ الغائبِ عن وعيه، ثمَّ ترتمي في ركنٍ مظلِم، مُتَلَفِّعةً بحزنها الكبير، تُردّد نشيدًا

عَشِقَتْهُ شفتاها:

«عُشْبُ البحرِ ينمو فوقَ جَسَدِك
واللآلي النادرةُ تستريح في عينيك
وجِنّيّاتُ الأعماقِ تَرْقُصُ حَوْلَكَ رقصاتِها المجنونة،
وأنا، أنا وحدي، حُرّمَ على عينيَّ
أن تستريحا في مرافئِ عينيك.
ومع ذلك، أَنتَظِرُكَ
هنا، في منزلِ القرميدِ النائي،
فوقَ تلّةٍ مُتَوَحِّدَة، أنتظرك،
بعدما يكونُ الجميعُ قد رحلوا عنك.
وأنتظركَ في اللّيالي الحالكة،
حين لا قمر يَهْديكَ إليَّ ولا نجم،
وتنبعثُ من أعماقي شظايا نورٍ عجيب
ترحلُ إليك،
تَشُدُّكَ، تَدُلُّكَ على الطّريق.

هل حقًّا، أَضَعْتَ طريقَك إِليَّ،

يا حبيبي؟...».

كان هذا نشيد أمّي. وإذا نَسيتُ المشاهدَ كلّها فلن أنسى مشهدًا ما زالت ترتعش لذكراه أوتارُ قلبي، برغم مرور السّنين، ورحيلِ الوالدة، وتراكمِ الأيّام، طبقاتِ تَحَوُّلٍ ونسيان... لن أنسى منظرَ أمّي، ذاتَ يومٍ شتائيّ مُثلِج، وقد خَرَجَتْ إِلى الحديقةِ.

أبصرتُها من النّافذة، تقتربُ من بركةِ الماءِ المتَجَمِّد، تُغْرقُ فيها أصابعَ يديها، وتُطلقُ صرخةً خلعَت نياطَ قلبي. ثمَّ أبصرتُها تدورُ على نفسها، وتعودُ إِلى المنزلِ محنيَّةَ الرّأس، تُتَمْتِم:

– يا مَيْمتي..

كانت البِرْكةُ، تُمثِّل لها الأوقيانوسَ الأطلسيّ المتجمّد.

أمّا أنا فكنت في حضنِ جدّي، أشعرُ بضغطِ ساعديه على جسمي الصّغير، يشتدُّ ويقوى..

يُريدُني أن أظلَّ مكاني.. بينما رغبةٌ جديدةٌ في نفسي تدفعُني لأتحرَّرَ من السّاعدين، وأنطلقَ إلى الخارج علَّني أبصرُ الشخصَ الآخر، خارجَ إطار الصّورة.

لكنَّ الإغراءَ في صوتِ جدّي، وفنِّه في سردِ الأخبار، كانا يطغيان على كلّ شيء... فأبقى حيثُ أنا، بعدما تحوَّلَ كياني إلى آذان صاغية.

وكَبُرَ جدّي، وشابَ شعرُه، وكبرتُ أنا وصِرتُ شابًّا.

وظلَّتِ الصّورةُ فوقَ الجدار، في قاعةِ الجلوس، على حالها: البذلةُ الأنيقةُ لم تَتكسَّر، الشّعرُ لا يزال على موضةِ أيّام زمان، والمنديلُ المخرَّمُ المطرَّز، ونظرةُ العينين الغامضة، تريدُ أن تقول شيئًا ولا تقوله.

المدينة والحلم

أَمسكتْ بيدِ أمّها، ومَشَت بجوارها، وكأنَّها تمشي في حلم.

ها هي أخيرًا في بيروت، مدينةِ الدّهشةِ والغرابة... بيروت، أسطورة عاشتْ في خيالها وتغذَّت بأفكارها سنوات.

سبقتها عيناها إلى تقليب صفحاتِ الأسطورة... الواجهات الملوَّنة، الشوارع الّتي يزدحم فيها النّاس، والسّيّارات. وتمرّ فيها القطارات، وترتفع فوقها الأضواء الكهربائيّة المشعَّة من كلّ زاوية، وتحفّ بها الأبنية العالية.

رفعتْ بصرَها تُحاولُ أن تقيسَ إحدى البنايات، فشعرتْ بدوار، ثمَّ غرقتْ في تساؤل قلق:

– كيف شيَّدوها؟

من هم هؤلاء النّاس؟

من أين يأتون؟ وإلى أين يذهبونَ؟

كم هي جاهلة! وكم هي صغيرة!

كيف لا تعرف واحدًا منهم؟... إنسانًا تقول له:

«نهارك سعيد».

أَوْصَتْها أمُّها، وهما تُغادرات «البوسطة» الّتي نقلتهما من الضّيعة:

– إنتبهي يا بنتي، النّاس في بيروت غُرباء، لا تحدِّقي طويلًا إلى وجوههم، الدّنيا هنا «غير شكل».

لكنّ الصّغيرة تُريد أن تتعرَّف هذه الدّنيا... أن تَكْتَشِفَها.

منذُ سنوات وهي تتوق إِلى تلك المعرفة؛ منذ أن زارت قريتها المعلّمةُ «جنان»، الصّبيّةُ الأنيقة، ابنة بيروت...

كانت تلك أيضًا «غير شكل» عن بنات القرية... ثوبُها حريريّ ناعم، مَرِحُ الألوان.. شعرُها مُسَرَّح بلباقة، مشيتها بطيئة هادئة، ووجهها مُزيَّن بذوق، وصوتها مُنخفض، ثمَّ عطرها...

كانت تستخدمُ عطرًا لم يسبق لِـ «منى» أن تنشّقتْ ضَوْعَه من قبل، لا في الحقول ولا عند الصبايا القرويّات... كان يهفُّ إِلى أنفها كلّما تحرّكتِ المعلّمة، أو اقتربتْ هي منها.

وكانت معلّمتها تتحدَّثُ عن بيروت بمحبّة.. فتشخص إليها العيونُ السّاذجة طالبة المزيد.

تَجَرَّأَتْ «منى» مرّة فسألتها:

– لماذا لا نَقومُ برحلةٍ إِلى بيروت؟...

وصفَّقَتْ رفيقاتُ الصفّ للفكرة: لِمَ لا؟...

إبتسمت المعلّمة وهي تمسحُ الخاطرةَ من رؤوسِهنّ:

– ألمسافةُ بعيدةٌ يا صغيراتي، والرّحلةُ مكلفة، وأهلُكُنَّ لن يَسمحوا لكنَّ بذلك...

ثمَّ توجّهَتْ إلى «منى» وَحْدَها بالكلام:

– إنتظري حتّى تَكْبري، ولا تَتَعَجَّلي الأمور.

ها هي قد كَبِرَت.. كَبِرَتْ كثيرًا.

مطّت جسمَها ووقفت على رؤوسِ أصابعها تَقيسُ طولها بقامةِ أمّها... فكادَ الرّأس يُساوي الكتف... وفكّرتْ:

– لن ألبث أن أصبحَ بطولها، أصيرَ كبيرةً مثلَها.

فقالتْ أمُّها:

– نذهبُ أوَّلًا ونصرف «البوليصة» ثمَّ أشتري لكِ ما تشتهين.

فتحتْ فمها لترُدَّ عليها، لتقول لها: لا أشتهي شيئًا... فقط دعيني أمشي هنا... أضيع هكذا... لا أريد لباسًا، لا طعامًا ولا شرابًا.

وسمعتْ شفتيها تُتَمتِمان:

– حُلوَةٌ بيروت.. حُلوَةٌ كَثيرًا يا أمّي.

وفي نفسها، كانت تُحسُّ أنّ المدينةَ تُشْبِهُ قطعةَ حلوى شهيّة، ملفوفة بورقٍ برَّاق.. وهي في تَجوالها تفتحُ اللّفافَةَ بتأنٍّ وحذر، وتفتحها بشوقٍ ودهشة، وتشعرُ بأنَّ أحلامَها كلَّها تتحقَّق.

لَفَتَتْ نظرَها أشجارٌ باسقة تَتَوَسَّطُ السّاحة الكبرى، وتتطاولُ نحو الفضاءِ بشموخ... ترفعُ أغصانَها وكأنَّها أذرُعُ مخلوقاتٍ غارقةٍ في آحتفالِ تعبُّد.

تساءلتْ: هذه الأشجار هل يبنونها أيضًا، أم تنبُت مثلَ أشجارِ الجبل؟!

ولم تجدْ بُدًّا من الاستعانة بأمّها: فأخبرتها الأمّ بأنّ هذه الأشجار هي أشجار نخيل، وهي لا تعيش في الجبل، لأنّها لا تُحبّ المناخ البارد.

والنّخيلُ ذكَّرها بمعلّمتها البيروتيّة...

كانت هي أوّل من تَحَدَّث عن النّخيل في حصّة «العلوم». قضتْ ساعةً تشرحُ خصائص هذا الشجر، والتّلميذات في آنتباهٍ تامّ.

لم يسبقْ لإحداهنّ أن رأت شجرةَ نخيل. وليسَ في الصّفِّ صورةٌ ترشدهنّ إليه. وأخيرًا آرتأتِ المعلّمة أن تحملَ إليهنّ من بيروت ثمار النّخيل ما دامتْ غيرَ قادرة على نقل واحدة من الأشجار.

حين عادتْ من إجازتها، أحضرتْ معها إلى الصفّ بعض حبّات من التّمر، وراحتْ تُشَرِّحها وتُوزّعها على التّلميذات ليتذوّقنها ويتعرّفنَ طعمَها.

بعدها، أصبحتْ بيروت، في نظرها، صبيَّةً حسناءَ مرفّهة، وثمرةً حلوةَ المذاق. وها هي اليوم تكتشف أنّ المدينة أكثرُ من ذلك وأبعد.

كلُّ واحدة من النّساء المنطلقاتِ في الشّوارع، مثل المعلّمة «جنان» وأحسن... والثمارُ الحلوة موزَّعةٌ على كلِّ زاوية.

لكنّ كلّ ما تُبْصِرُه، من النّاس والأشياء، يبدو بعيدًا بعيدًا... لا تطاوله اليد، ولا تعبُر إليه الكلمات.

تَعِبَتْ أُمُّها من المسير، فاقترحت أن تعودَ معها إِلى الفندقِ للغداء والقيلولة.

رضيتْ «منى» بالاقتراح على مضض؛ فهي لا تجرؤ على التحرّر من قبضة أمّها، كي لا تضيعَ وتتشرَّدَ في هذه الدّنيا المجهولة، بينما تركتْ خيالَها يقفزُ إِلى أبعدَ من حدود المدينة ومن حدود الحلم.

جلستِ الأمُّ تتناولُ الغداء وحدها، وهرعتِ الصّغيرةُ إلى شرفة الفندق.

كان المنظرُ من الشّرفة رائعًا. أحسَّتْ وكأنَّها تُحلِّق في الجوّ، وتُسيطِرُ على كلّ ما هو دونَها.

وراحتْ عيناها تعبّان المَشَاهِد الجديدة، فتُسجّلها عدسةُ وعيِها، بل تَحفرُها في الذاكرة حفرًا.

ومن الذاكرةِ تستعيدُ هذه الصورَ، اليومَ، وهي تعبرُ شوارعَ المدينة.

المدينةُ الّتي أصبحتْ ذكرى تدُقُّ على باب الضّمير. تُغْمِضُ عينيها حتّى لا تبصرَ الحرب. تُسْكِتُ منه الوعي، كي لا يَقفزَ منها، ويرحل إلى غير رجعة.

أهكذا تنتهي الأحلامُ الجميلة؟

الأحلامُ الّتي تعيشُ في الوجدان سنين عديدة، حتّى تصبحَ جزءًا من الكيان؟...

إنّها تَرْفُضُ الصورةَ الحاضرةَ للمدينة.

تَرْفُضُها، وتُعيدُها إلى مسار الحلم، وهي واثقة بأنَّ كلَّ بناءٍ جديد لا بدّ من أن يبدأ في منابع الحلم والأمل.

بكاء في غابةٍ شماليّة

سألني قائلًا: هل سَمِعْتِ غزالًا يبكي؟

ولم ينتظرْ جوابي فتابع:

– أمَّا أنا فقد سمعتُه. سمعتُه بأذني. اخترق بكاؤه صدري مثلَ نَصْلٍ حادّ.

– غزالٌ يبكي؟...

سألتُهُ بفُضول، فتابع:

– أجل. كنتُ أقومُ برحلةِ صيدٍ في غاباتِ «كندا» (مُحَدِّثي مُهاجِرٌ يقطن منذ ربعِ قرن في البلاد الكنديّة) حين قَفَزَ من ظلمة الغابة قطيعٌ من الغزلان... فلم أصدِّق ما أبصرتْ عيناي.

كنتُ في مطلعِ شبابي صيّادًا ماهرًا. وكانتْ أبعدُ رحلةٍ تحملني إِلى سفوحِ جبلِ «الشّيخ»، حيثُ أطاردُ الأرانبَ البرّيّة والحجالَ وطيورَ السمّان. أمّا الغزلان فكنت أعرفُها من الصّور فقط.

يمكنك إذن أن تَتَصَّوري دَهْشتي وأنا أتأمَّلُ تلك المخلوقاتِ اللّطيفةَ الجميلةَ تَقْفِز، وتتعانقُ وتتمرَّغُ فوق العشب، وعلى بُعْدِ أمتارٍ منّي. وقفتُ دقائقَ أراقبها، وقد نسيتُ غاية وجودي في ذلك الغابِ الشماليّ.

لكنَّ غريزةَ الصيّادِ الأوَّلِ ما لَبِثَتْ أن تَحرَّكَت في صدري، حين أبصرتُ واحدًا من أفرادِ القطيع ينفردُ عنِ الجماعةِ ويَجْمَعُ مُبْتَعِدًا.

صوّبْتُ إليه البندقيّة، وضغطتُ على الزِنادِ، وفي لمحةِ بصرٍ كان المسكينُ يتخبّط الأرض، فيما آختفى كلّ أثرٍ لقطيع الغزلان.

أصابتْهُ الرّصاصةُ في إحدى ساقيه، فأقعدَتهُ عن الحركة، لكنَّ الألَم حرَّك فيه شيئًا آخر، فراحَ يَصْرُخُ مستغيثًا، وشقَّ صُرَاخُهُ سكينةَ الأجواء...

لم يكنْ صُراخًا عاديًّا لحيوان جريح، بل صراخ طفلٍ يتألّم، ويتألّم بشدَّة. اقتربت من ضحيّتي، ورفعت غزالي الجريح إلى حضني، ورُحْتُ أَتَحَسَّسُ موضِعَ الألم في جِسمِه.

جُرْحُهُ بليغ. أخرجتُ منديلي وأحكمت ربطَ السّاق، لأُوقِفَ النزف، ثمّ حَمَلْتُهُ إلى السيّارة، دون أن أجرُؤَ على التّحديقِ إلى عينيه؛ خِفْتُ أن أُبصِرَ فيهما صورةً لغيرِ الّذي قَنَصْت.

كان غزالي يبكي مثلَ طفل؛ وقد ذكّرني بُكاؤهُ ببكاءِ طفلي حين عادَ يومًا من اللّعب وقد شجَّ رأسَه، إثر قفزةٍ عن غصنِ شجرة. وكما قبَّلْتُ طفلي لأعزِّيه، انحنيت أقبِّل رأسَ الغزال ووجنتيه، وعنقه. قبّلتُه أستغفره جريمتي،

وظلَّ هو يبكي. ورافقني بكاؤه طوالَ الطّريق، ممّا آضطرّني إِلى حشو أذنيَّ بالقطن.

ما كان أغباني!...

أَوَيَسْتَطيع القطن أن يردَّ الصرخاتِ المتردِّدة بين الضلوع؟...

وما كدت أصل إِلى منزلي، حتى سارعتُ إِلى أقربِ طبيبٍ بيطريّ، ورجوتُهُ أن يُسعِفَ غزالي، ويَشفيه. جَسَّ الطبيبُ السّاقَ المصابةَ ولاحظَ فيها كسرًا بليغًا، لكنَّه طمأنني إِلى أنَّ حالة الغزال ليست شديدة الخطورة؛ فلن يلبث أن يُشفى في غضونِ أيّام.

وأضاف:

– وبإمكانكَ بعد ذلك أن تُدَجِّنَه، وتُبْقيَه في حديقةِ المنزل.

شَكَرْتُ للطبيبِ إسعافَهُ ونُصْحَه، ثمّ حَمَلْتُ غزالي وعُدْتُ إلى المنزل، وقَضَيْتُ الأيامَ التّالية مشغولًا به. شعرتُ بأنّي اقترفْتُ جريمةً بَشِعَةً في حقِّ الحيوانِ الحرّ، والغاباتِ البِكْرِ، والحياةِ بكلِّ مظاهِرِها، وتَساءلتُ:

– كيف كنتُ أعتبرُ القنصَ هِوايةً ومتعة؟... وهل كان عليَّ أن أَسْمَعَ بكاءَ غزالٍ برّيّ، لأنتبهَ إلى وحشيّتي، وأبصرَ الدمَ المُلطِّخَ يديّ؟...

بعدَها، أَقسَمتُ ألَّا أعودَ إلى القنصِ أبدًا، وتحوَّلْتُ إلى ممارسةِ رياضةٍ بريئةٍ لا تُزْعِجُ الحيوانَ ولا الشجرَ ولا النبات.

– والغزال، ماذا فَعلْتَ به؟...

– الغزال؟.. لقد، شُفِيَ تمامًا؛ صار ينطّ في الحديقةِ ويلعب مع الأولاد، ونسي الألَمَ والبكاء.

وذات يوم، آقتربت منه ولأوَّلِ مرَّةٍ أخَذْتُ رأسَهُ النّاعمَ بين كفَّيّ، وتأمَّلْتُ عينيه طويلًا، لأقرأَ فيهما كلمات الغُفران... كلماتٍ تُعيد إلى نفسي هُدوءَها.

ثمَّ نَقَلْتُ هذا المخلوق اللّطيفَ إلى سيّارتي، وآنطلقتُ إلى الغابة؛ تلك الغابةِ الشماليّةِ البِكْر، وهناك أطلقتُهُ لحرّيّتِهِ، ووقفتُ أتأمَّلُهُ يتغلغل بين العرائش الخضراء والأشجار المتشابكة...

طبيب مغربيّ

زيارتُه، من يَذْكُرُها...

كانت العيد، بالنّسبة إلينا، نحن الأطفال المغروسين عند حدود نائية من الوطن. يُعلنُ قدومه تَلْويحُ الكوفيّة البيضاء، عندَ مطَلّ الضّيعة، ووقعُ حوافرِ بغله على الطّريق الحجريّ.

– وصل المغربيّ، تصرخُ إحدى الجارات، ويَتَفشّى الخبر في القرية مثلَ بقعةِ زيتٍ فوقَ ورقة. ينتشرُ مع الرّيح، و«هيصَة» الأولادِ في الأزقّة.

وبينما كانت إطلالةُ وجهٍ غريبٍ، على حيٍّ أو زاروب، تُقلِقُ الأمّهاتِ فيدفَعْنَ الأولادَ، وخصوصًا البنات منهم، إلى التآوي في المنازل.

فقد كان تصرّفُهن يتحوَّلُ إلى عكس ذلك، حين يَصِلُ الطّبيبُ المغربيّ، فيخرجنَ من البيوت، وينتشرن فوق المصاطبِ والشّرفات، متجاهلاتٍ حُسْنَ المظهر.

فمن كانت يداها في «لكَنِ» الغسيل تمسحُهُما بمريولها ولا تُبالي... ومن كانت تعجن، تقفزُ تاركةً العجنةَ تنتظرُ عودتها.

وكم من طبخةٍ آحترقتْ فوقَ نارٍ منسيَّة.

والمغربيّ يصلُ. يُعْلِنُ ذلك صوتُه الهادرُ بين الأزقّة:

– دوا للعين، دوا للرأس.. دوا للرّبّي دوا للغبّي...

عباراته مشَجِّعة، منغَّمَة، وصوتُهُ رصينٌ هادئٌ، وأسلوبُهُ يخصُّه وحدَهُ، وَيَعْجزُ أيٌّ كان عن تقليده.

وأنا، ما كنتُ لأفوِّت تلك الفرصَ النادرة، فأهْرَعُ مع الرّفاق من أولاد الحيّ، لنتحلّقَ حولَه، ونتطاولَ على رؤوسِ أقدامنا، لنكتشفَ الأسرارَ المختبئةَ في أكياسٍ

يحشو بها الخُرْجَ المستريح فوقَ بغله. وجُلُّها من الأعشابِ الّتي يَجمعُها من حقولِ القرية، بما له من خبرةٍ ومهارة.

يَجمعها، ويُجَفّفها ثمّ يُصَنِّفها، أدويةَ شفاءٍ لكلِّ الأمراض.

وكان الرّجلُ يَنقُلُ إلى أجوائِنا غَيْرَ الحشائِشِ الجافّةِ والوعودِ بالشّفاء...

كان يحملُ ذلك الغموضَ الّذي يُرافِقُ الغرباءَ المجهولين، ويجعلُ الإنسانَ المقيمَ في عزلةِ القرى النائية يُحِسُّ بالنّشْوةِ وبما يشبهُ السّعادةَ الحقيقيّة.

زيارتُه كانتْ إجازتَنا المنقذة من الضّجرِ ورتابةِ الأيّام.

وهو أبدًا لا يترجَّل. يبقى فوقَ ظهرِ مَطِيَّتِهِ، بعدما يَنْتحي ركنًا آمنًا من الطّريق أو السّاحة.

وتتجمّعُ حوله النّسوة، ينقلن إليه الشكاوى، فيُصْغي إليهنَّ، بدقّةٍ وآهتمام.

يُصغي، ثمّ يَمدُّ يدَهُ إلى الخُرج، ويتناولُ حَفْنَةً مِنَ الحشائشِ المدقوقة، والّتي هو وحدَهُ يُدرك أسرارها، ثمّ يُوزِّعُها دون أن ينسى تَلَقِّيَ ثمنها.

والدفعُ يتمُّ بسخاء، ودون جدلٍ أو نقاش... فأسعارُ المغربيّ لا تحمِلُ خَتْمَ الصّيدليّ، فالتّعديل إذًا لا يصيبها.

وأسألُ من هذا البعدِ الزمنيّ، عمّا إذا كان لتلكَ الأدويةِ أَثرٌ إيجابيٌّ فعّالٌ يشفي المرضى؟ وعمّا إذا كان الرّجل هذا يملِكُ القدرة على الشّفاءِ الحقيقيّ؟

أسأل، ولا أنتظرُ جوابًا. فقط، أتذكّرُ أنّه كان للنّاس إيمانٌ مطلقٌ بخبرته، يقابلُه حرمانٌ مُطْلَقٌ من أيِّ وجود للطّبابة العلميّة.

والمرضُ ينمو في كلّ العصور، ويغزو الإنسانَ المسافرَ نحو القرنِ الحادي والعشرين، تمامًا مثلما كان يغزو جَدَّهُ الأوّلَ في الكهوفِ الحجريّة.

وأذكُرُ أيضًا أنَّ الطّبيب المغربيّ لم يكن يُداوي بالأعشاب الغربية، وحَسْب، بل كان يغتنمُ فرصةَ دخولِه الحميميّاتِ في حياةِ القرويّين، فيُظهر مقدرةً أخرى كامنة فيه.

وفيما أذناه تُصغيان إلى صاحِبَةِ الشكوى، تَظَلُّ عيناه تتفرّسانِ في الوجه، وتخترقانِ الطبقةَ السطحيّة، وتعبران العينين المنفتحتين باستِسْلام، حتّى إذا توقَّفتْ مُحدِّثَتُهُ عن الكلام، ردّ عليها بصوتٍ هادئ:

– ما لك غير هذه العشبة. اغليها مع كوبَيْ ماء وآشربي منها ملعقتين على الرّيق... ثمّ يُضيفُ بصوتٍ هامسٍ:

– زوجُك أموجودٌ هو أم مسافر؟ ولا يزيد على ذلك حرفًا.

وتكتفي المرأةُ ومَنْ حولَها بهذا القدر من الرجْم بالغيْب؛ قبل أن ينتقل إلى وصفة تالية وإلى زبونة جديدة:

– هذه العشبة انخليها، وآمزجيها مع ملعقة عسل... ثمّ خذي لَحْستين قبل الطّعام... إنّها أفضلُ علاجٍ ضدّ غازات الأمعاء... ثمّ يتابعُ بصوتٍ هادئ:

– هذا دواءٌ لا يضرّ النِّساءَ الحوامل.

وتَجْفَلُ المرأة الحامل، إذ ينتشرُ خبر حملِها بين الجارات قبل أن يتبلَّغَهُ الزوجُ الغائبُ في حقله.

ولم يكن المغربيّ يُهْمِلُ وجودَنا، نحن الصّغار، شأنَ سواه من زوّار القرية؛ بل كان يراقب الصّغار والكبار، ولا يفوته رضيعٌ تردُّه أمٌّ إلى صدرها. فيتوقّف عند تلك الأمّ ويقول:

– طالعه سعد...

انتبهي له...

وقد تحطُّ نظرته على فتًى آخرَ، جالسٍ فوق أسوارِ الحديقة، فيُشيرُ إليه:

– إبن مَنْ يكون؟ اسم الله على هذه الخلقة... أتوسَّم في طلَّته الخيرَ.

وتهرع أمُّ الولدِ المختار، فتحتضِنُهُ، وتُمطِرُهُ بوابلٍ من القبل، بينما الوجوهُ الباقية تستقي المزيد من قطراتِ الوحي المنعش.

وفي إحدى المرّات، لاحَظَ وجودي، فسلّطَ عليّ نظراتِه.

شَعَرْتُ بالقلقِ وبغليانٍ في أعماقي وحاولت الهرب، فقبضَ صوتُهُ عليّ وجمّد خطايَ:

– بِنت محظوظَة!.. مكتوب على جبينها السّفر. من يدري!

حاولتْ أمّي أن تقولَ شيئًا، ففتحتْ فمها، ثمّ أطبقته، ولم تنبس بحرف. لكنّها أمسكتْ بيدي، وقادتني إلى المنزل، وسمعتُها تتمتم:

– بنت محظوظة... لكنّ السفر، مَن يدري؟...

وآختنقتِ الكلماتُ التّالية في أعماقِ الحنجرة.

ولم تُخْفِ الطّفلةُ كلامًا سمعتْه، عن أفراد العائلة. فهزّ الأبُ رأسه وقد تحرّكتْ في صدره الشّكوك:

– أتصدّقين كلامَ المغربيّ؟... المثل ما قال شيئًا كذبًا؛ كَذَبَ المنجّمون ولو صدقوا...

ولم تَبْذُل الوالدةُ أيَّ جهدٍ للدفاعِ عن المنجّم، إنّما أضافَتْ بكلّ تأكيد:

«لكنَّ أعشابَه تشفي أمراضنا».

* * * * *

من حدائق الطّفولة أجمعُ هذه الباقة من الذّكريات، وأنا أتساءل:

كيف آختفى المغربيّ أو الطّبيبُ العربيّ، كما يُسمّيه البعض! كيف آختفى من حياتنا، وانقطع رزقهُ حين بدأ

الطبُّ الحديث يغزو المدنَ والقرى!...

ومع غيابه، فَقَدْنا الكثير من المفاجآت، وأويقاتِ الانتظار.

وكَبِرَ الأولادُ الّذين كانوا يتبعون خطّ طريقه، ويجلسون فوق أسوار الحدائقِ، وأغصانِ الشّجر ينتظرون.

والأطفالُ الّذين كانوا ينامون فوق صدورِ أمّهاتِهم، ولا يُدركون كُنْه أقواله، تفرّقوا، وذرّتهم الحياة في كلّ صوب.

وأنا، من هذا البعد الزمنيّ، أُسجّل الذكرياتِ وأتساءل:

– هل كانتْ أعشابُهُ واسطةَ شفاءٍ حقيقيّ؟... أم أنّها تلك الكلمات؟ وتلك النبوءات؟!

المغتربُ الرائد

كان الفتى في السّابعةَ عشرةَ من عمره؛ أي في سنّ الرفض، والتمرّدِ والبحثِ عن الذّات.

وكان الابنَ البكر، في أسرةٍ فقيرة، ممّا جعل والدَه يدفع به إلى العمل، أجيرًا لدى أحد أقرباء له من العائلة، وكان ينعم في رغد من العيش.

قال له:

– يا ابني، الرّجل قريبنا. عنده تجد الرّعاية والعطف، وتساعدني، بما تحصِّله، على إعالة أمّك وإخوتك.

ولم يرفضِ الفتى طلبَ أبيه، فرضي بأن يعمل أجيرًا، هو الّذي لم يتعلّمْ مهنةً يدويّة، ولم تجاوزْ دراسَتُهُ الصفَّ الابتدائيّ الثّالث.

كان عليه أن يَقْبَلَ بهذا العملِ الصّعب. وكانت أمُّهُ تُشَجِّعُه كلّ مساء، وهي تدعوه لأن يغسل رجليه بالماء السّاخن، ويتناولَ عشاءه:

– يا بنيّ... الشّغل للرجال. لا تخجلْ في العمل. أمّا أبوه فكان يسألُه بين حين وآخر:

– كيف يُعاملك قريبنا؟

فلا يجيبه الفتى القليلُ الكلام.

ويتوقّفُ الأبُ عن السّؤال، خَوْفَ أن يُفْسِدَ العلاقةَ بين ابنهِ، وربِّ العمل.

كانتِ القروشُ القليلةُ الّتي يجمعُها الفتى في آخر النّهار، ثمنًا لعرقه، وكدِّ ساعديه، تسدُّ ثُغرةً في حاجاتِ العائلة.

لذا، كان الأبُ يَغُضُّ الطرْفَ عن شكاوى الآبن، من معاملة سيّده، بل إنّه كان ينتظر أن يكبر الولد الثّاني، ويُصْبِحَ في سنّ تمكّنه من العمل ليُلحِقَهُ بأخيه.

لكنّ حسابَ الأبِ كان غيرَ حسابِ الابن. فالقروشُ القليلةُ الّتي آعتبرها الأب سندًا للعائلة كان لها حساب آخر، لدى آبنه. إذ لم تكنْ أجرًا يتلقّاه هذا الأخير بدلَ أتعابه وحسب، بل تعويضًا عن إهاناتٍ تنصَبُّ على رأسه من ربّ عملٍ طمّاع، وظالم، لا ينظر إلى الإنسان في وجهِ من يساعِده، بل إلى الآلةِ المتحرّكةِ في ساعديه.

وفي يوم، زاد العيارَ على الشّابّ، إذ راح يصرخ في وجهه، ويكيلُ له من الشتائم مقدارًا تجاوز أيَّ آحتمال.

فرفع الفتى معوله، وكاد يُهوي به على رأسِ ذلك الظّالم.

لكنّه بدلَ أن يصُبَّ غيظَه في جمجمة ربّ العمل، ويرتكبَ الجريمة، شكَّ المعول في تلعةٍ من تلاع التّراب، وغادر الحقل، وهو يُقْسِمُ ألّا يعودَ إلى مثل هذا العمل المُهين، طوال عمره.

ثمّ أعادَ القَسَم نفسه أمام أبيه الغاضب، وغادر البيت، دون أن يحمل معه زاد الطّريق.

تلك اللّيلة، لم تنمْ أمّ الفتى، ولا نام أبوه. والإخوة الصّغار بكوا بحرقة.

فالأخ الكبير هجر البيت، هجر القرية. فجأة نبت ريشٌ في جناحيه، فحملاه إلى دنيا يجهلونها.

وظلّوا يترقّبون منه خبرًا، وطال آنتظارُهم ولم يطرق بابهم «البوسطجيّ»، لينقلَ رسالةً مُطَمْئِنة، ولا جاءهم من يُخبر عن مصير الفتى الأكبر.

وكرّت الأشهرُ والسّنون، والعائلةُ الفقيرة في حدادٍ على فتاها الوسيم.

أمّا الأبُ الّذي آعتبرَهُ ابنًا ضالًّا، فقد كان يخبِّئُ الحزن، في ثنايا نفسه، ويَحْمِلُه معه إِلى الحقل، كي يرميه للريح، والغيوم العابرة.

إنقضتْ سنواتٌ خمس، قبل أن ينقلَ البريدُ رسالةً إِلى الوالدين.

وكانت رسالة الفتى الضّالّ، يُضمّنها كلّ التّوبة، ويطلبُ الغفران، ويُعَبِّرُ، قَدْرَ ما أمكنَه، عن آلامٍ تَحمّلها خلال عملهِ لدى قريبهم، إِلى أن ثارتْ كرامَتُهُ، ورفَضَ أن يَسْفكَها على مذبحِ اللّقمة.

وهذا ما دفعه إِلى السّفرِ، ليجرّب حظَّهُ في دنيا الآغتراب.

وقد وافاهُ الحظّ، وأسعفَهُ حُبُّه للعمل، فبات يُضاعِفُ الجهدَ والسعيَ ليقترب من النجاح.

وكلّما تذكّر سيّده الظّالم، وكلماتِهِ القاسيةَ، عاهد نفسه على الآستمرار في التحدّي، وتذليل العقبات، كي

يُجنّب إخوته مذلّةَ الفقر، ومهانة العمل، لدى أناس فقدوا الشّعور، وتجاهلوا أبسط قواعد التّعامل الإنسانيّ.

وفي تلك الرسالةِ نفسها طمأنَ والديه إلى أنّه جمع قسطًا من المالِ يكفيه لينشئ مخزنًا صغيرًا. ووعدهما بأن يستمرّ في المراسلة، إذا وفّقه الله.

كما طلب من إخوته أن يَسْتعدّوا لموافاته إلى أرض الاغتراب، هربًا من العوز والفقر.

* * * * *

أُتابعُ حكايةَ ذلك الفتى من آل حماده، الأسرةِ العريقةِ في بعقلين، كما نشرتْها أشهر المجلّات الأميركيّة.

ولم تكن القصّة عن الفتى، بقدر ما كانت عن ثمرة أتعابه، وعن البناء الشّامخ الّذي رفعه في دنيا الآغتراب، بعد انقضاء عشرات السّنين.

فالفتى الّذي كان يجهلُ لغةَ البلاد الجديدة، لم يكن يُعوزه الذّكاء، وحسنُ التّدبير في العمل.

وبعدما فتح مخزنًا للأغذية، واجهته مشكلة اللّغة؛ فهو لا يتحدّث لغة البلاد، ولا يستطيع أن يتفاهم مع الزبائن.

كما أنّ حالتَه المادّيّةَ لا تسمحُ له بأن يوظّف مساعدًا يقوم بدور التّرجمان.

ولكنّ الحيلة لم تعصه. فلقد آشترى مجموعةً من السلالِ، رَصَفَها عندَ مدخل المخزن.

فإذا دخلَ الزبونُ لشراء الحاجات، زوّده بالسلّة، ثمّ طلب إليه أن يتجوّلَ في المخزن، ليختارَ منه حاجاتِه، وبعدها يَعودُ إليه للتّحاسب.

إبتكارٌ جديد، لم يكنْ معروفًا في المخازنِ الأميركيّة.

وقد أُطلق عليه، فيما بعد، اسم «سِلْف سِرڤيس» أي الخدمة الذاتيّة.

وأعجب السّيداتِ هذا الأسلوبُ المبتكر في الشِّراء، وآنتشر الخبرُ بين سكّان المدينة، فأقبل النّاس على مخزن

«حماده» بدافعِ الحشريّةِ أوّلًا، ثمّ بفضل الأسلوب العمليّ، الّذي يُوفّر الجهد والوقت.

وشجّعه هذا النّجاح فمضى في توسيع رُقْعَةِ العمل، وتضاعفت أرباحُهُ بشكل مُدهش، وراحت مخازِنُهُ الفرعيّة تنمو في كلّ حيّ من أحياء المدينة...

وبذلك عمّتْ طريقةُ «السِلْف سِرڤيس» أو «اخدم نفسك» جميع مناطق المدينة.

ومنها آنتقلتْ إلى سواها من المخازن الّتي وجدتْ في اتّباعها توفيرًا للجهد، إذ بإمكان عدد قليل من الموظّفين، أن يُديرَ أكبر المخازن.

وماذا جرى للأسرة المنتظرة في بعقلين؟

ألنجاح شجّع الفتى على استقدامِ إخوته، وأبناءِ عمّه الّذين توزّعوا في المخازن المنتشرة في مدن أميركيّة عدّة، ومعها آنتشر اسمُ العائلةِ في كلّ حيّ آهل.

ثمّ آنتقلتْ مخازنُ آل حماده مع امتيازاتها، إلى مدن أخرى، في عدّة ولايات.

وحين تُسَجَّلُ أسماءُ الرُّوّادِ في الأعمال والآبتكاراتِ يُسجّلُ آسمُ الفتى البعقلينيّ الّذي لَبَطَ المعوَلَ، ولم يحتملْ كلمةً تُذلُّهُ، فهاجرَ على جناحِ الطّموحِ والإرادةِ القويّة، ليبنيَ في دنيا الآغتراب إمبراطوريّةَ أعمال شاسعة.

والطَّريقةُ المبتكرةُ الّتي نجحت في أميركا انتقلْت إلى العالم، وآستوردناها، نحن، في جملة ما آستوردنا من فنون وابتكارات.

«شوْف.. تْفَرَّجْ يا سَلام»

«لا يجوزُ أن تُغادري بلادنا، قبل أن تَزوري متحفَ صديقنا «أوسكار».

إنَّ مجموعَته الأثريّة الخاصّة، تختلفُ عن كلّ ما شاهدتِهِ في متاحِف الشّرق والغرب... هيّا... إنّه ينتظرنا».

لم يكن بوسعي سوى النّزول عِند رغبة الصّديقة، وبكثير من الشّوق والفرح تبعتُها، وهي تتقدّم، ثمّ تعبر قاعةً فسيحةً تُخَيِّم عليها ظُلمَةُ العشيّة.

إتّجهتْ بي إلى مكتبٍ جانبيٍّ مُشَعْشَعِ الأنوارِ ولم تَطْرُقِ الباب، إذ كان مفتوحًا.

وكان ربُّ الدّار ينتظرنا. هبّ يستقبلنا، حال دخولنا، ثمَّ دعانا إلى مرافقته في جولةٍ داخل «متحفه الصّغير» أيّ القصرِ الشّامخِ، الّذي تحوّلَ، بفضلِ هوايته، إلى متحفٍ للتّماثيلِ النّادرة.

قلت هواية!... لا... إنّ التّسميةَ لتُقَصِّر عن الوصف الحقيقيّ، لآنغماس الرّجلِ في ذلك العالم المدهش. صحيح أنّ السّيدَ «أوسكار» كان في مكتبه، لدى وصولنا، وكان منكبًّا على رزمة من الأوراق القديمة، يُحقّق فيها، ويُسجّل ملاحظات بشأنها؛ لكنّ الصّحيحَ أيضًا أنّه كان يرتدي ثيابًا لا يظهَرُ فيها النّاسُ في مكاتِبِهم، ولا حتّى في قاعاتِ الآستقبال؛ وهي تشبه ثيابَ الممثّلين، في المسرحيّاتِ القديمة... وفسّرتْ لي صديقتي ذلك بقولها:

هذا يَزيدُ من الآنسجامِ، ويُقوّي الرابطة بين الرّجل، ومجموعتهِ الأثريّة.

وأَخْرَسْتُ بقيّةَ تساؤلاتي حين سمعتُها تقول:

– سيّد «أوسكار»، إنّها الصّديقة القادمة من العالم القديم... وهي تهوى التّحفَ والآثار.

ولم تُعْطِني الفرصةَ لأصحِّحَ أو أحتجّ، فقد سارع الرّجلُ إلى مدِّ يدِه، فصافحنا بحرارة، ثمّ دعانا، لنقومَ معه بجولة في أنحاء متحفه.

أُحاول هنا أن أستعيد صُوَرًا من الذاكرة، وأَصفَ بعضَ ما شاهدتُ، وأنا، حتّى الآن، أكادُ لا أصدّق أنّ تلك الزيارةَ حدثَتْ في الحقيقة، لا في الخيال، بل في حلم من تلك الأحلامِ الّتي تنقلنا إِلى العوالم الخارقة.

وقف الرّجلُ وكأنّه البطل في مسرحيّة من المسرحيّات، ثمّ أشار بيده، وهو يضغط أزرارًا، وإذا المصابيح في الزّوايا قد أضاءت، وصدحت الموسيقى العذبة، فبدت لأعيننا التّماثيل، وقد اصطفّتْ مثلَ الجنود، عند آستقبال الملوكِ وكبارِ الحكّام.

أمّا «البطلُ» فكان يخترقُ الصفوفَ، إلى أن وقف أمام أحد التّماثيل، ودعاني للاقتراب منه، وتأمّله.

ثمّ راح يشرح قائلًا: «تمثالٌ من حجرِ الصّوان، عُمْرُهُ ثلاثةُ آلافِ سنة... عثروا عليه في أعماق البحر، على شواطئِ بلدِكم، وكانوا ينتشلونَ سفينة غارقة.

هذا حجر الأساس في عمارتي. لاحظي الطبقةَ الكلسيّةَ وبصماتِ البحر، فوق الجسم الأصليّ. ثمَّ استطردَ دون أن ينتظرَ سؤالًا منّي:

– عندي مجموعةٌ من التّماثيل الأثريّة العائدة إلى تاريخِكم القديم، وإلى حِقَبٍ متعدّدة فيه. وجدوها في البحر، وفي أعماقِ الكهوف.

بلادُكم ذاتُ حضارةٍ عميقةِ الأثرِ في التّاريخ، هذا ما تُخبرنا به الآثار.

حاولتُ أن أَفتحَ فمي لأسألَ الرّجلَ:

بأيِّ حقّ يقتني تلك الآثار! ونحنُ أَحَقُّ بِها فوقَ أرضنا، لتردَّنا إِلى الماضي، لعلّنا نتعلّم بعضَ دروس منه.. لكنّ الرّجلَ لم يُفْسِحْ لي في المجال. انتقل إِلى تمثال جديد، بل إِلى مجموعة، وُزّعت على أنحاء القاعة، مثلَ أبطالٍ في مسرحيّةٍ حيّة، ثمّ لم يلبث أن آندمج هو في الدور، وظلَّ صوتُهُ يَعْبُرُ المسافات المتراكمةَ بيننا، وَيَصُبُّ في أذنيّ:

– هذا التّمثال المقطوعُ الرأس، هو لفيلسوف يونانيّ. مَن يحتاجُ إِلى رأسِ فيلسوفٍ في عصرنا؟

وهذا لبَطَلٍ رياضيّ من الحضارة الرومانيّة. أوّل ما يلفت النّظر تناسقُ العضلات.

وتلك «فينوس» إلهة الحبّ عند الشّعوب القديمة... مسكينة، وجدوها في كهف تحت أنقاضِ مدينةٍ هدمها الزّلزال... إنّها إلهة الحبّ لكنّها مبتورةُ السّاقين.. وبرغم ذلك، وجهُها يشعُّ بالنّور. ولا همَّ إن هي خسرتِ السّاقين، فجناحا الحبّ، يرفعانها.

أجل، للحبِّ أكثرُ من جناحين، وللذاكرة أيضًا.

آه، ما أسرعَ ما تستيقظُ الذّاكرة، وتنهضُ جيوشُها من أعماق الوعي، فتتدخّلُ بين السّامع والمسموع، وبين الرّائي والمرئيّ، ويتحوّلُ هاوي التُّحَفِ والتّماثيلِ إلى ظلالٍ شاحبة، يطلع منها وجهُ ذلك الرّجلِ الغامضِ الّذي غزا طفولتَنا، وفوقَ ظهرِه «صندوقُ الفرجة»... وبطرفة عينٍ تُصبحُ «فينوس» «عبلة» وبطولة «عنترة» على قدميها... ويتابعُ الصّوتُ رسْمَ الحكايات:

«شوف تفرّج يا سلام.. شوف الدّنيا بالتّمام...».

وتتقلّبُ الصّور، وتُطِلُّ فوق المسرح الوجوه، وتُروى الحكايات، منها المُضحِك، ومنها المُبكي. ويتتابع ذلك الكلامُ الّذي يثيرُ الحنين، ويُحرّك لواعجَ النّفس...

وتَصْطفُّ الشخصيّاتُ القديمة، جنبًا إلى جنب مع وجوه من الحاضر، ثمّ يتحوّلُ الجميعُ إلى تماثيلَ

متحجّرة، مقطوعةِ الرأسِ أو السّيقانِ، والسّواعدِ، ومنخورةِ الأجسامِ، تكسوها طبقاتٌ كثيفةٌ، من ترسّبات البحارِ، أو غبار الصّحاري..

تقف متجمّدة، وتنتظر.

ماذا تنتظر الوجوه، بعدما تؤدّي دورها، ويُخْتَمُ عليها بخاتم الزّمن؟

«شوفْ تفرّجْ يا سلام... هيدي الدّنيا، بالتّمام...».

ويُعيدني صوتُ مضيفنا إلى الحاضر:

«هذا آخر مقتنياتي...» تمثالٌ من المرمر، ليس قديم العهد كسواه؛ إنّما هو آيةٌ في إتقان الصّنعة... لقد تأنّتْ يَدُ الفنّان، وأبدَعَتْ، وأخرجَتْهُ إلينا حيًّا، يكادُ ينطق، بل أكادُ أسمَعُهُ يجترحُ الأعجوبةَ، فيُقَدّمُ الطّاعة، ويتخطّى تمثال «موسى» ويثير الحسَدَ في صُوَر الفنّانِ الخالد «ميكالانج»..

– لو كان ذلك الفنّان العظيمُ معنا، الآن، لما اضطرّ إلى أن يضرِبَهُ بالمطرقة، ويأمره بالنّطق.

«لو كان «ميكالانج» بيننا...».

سَمعتُني أُرَدِّدُ ذلك الكلامَ، دونَ قَصْد منّي؛ فابْتَسَمَ الرّجلُ وقال:

«منذ سنوات، وأنا أبحثُ عن صاحبِ هذا التّمثال، وهو لا يزال حتّى الآن مجهولًا».

طَرَحْتُ عليه سؤالًا ساذجًا:

– هل يمكنُ أن تشيرَ ملامِحُهُ إلى أصلِهِ؟... إلى زمانه؟...

تَفرّسَ الرّجلُ في وجهي، وقال وهو شاردُ الذّهن:

– «ربّما.. ربّما.

ولكن ما همَّ! أيّ زمان، وأيّ مكان؟ فهو آيةٌ، تتجاوزُ الأسئلة والتّفاصيلَ الصّغيرة.

المُهمُّ أنَّه يخدمُ الفنَّ، وغايتَه... يُسجّلُ الحاضر، ثمّ يرحَلُ به صوبَ العصور الغابرة. وفيما نحن الآن واقفون، فوق أرضيّة الواقع، فإنّنا نرتحل عبر مئات السّنين، إلى الماضي، ونقفُ أمامه وجهًا لوجه، نستنطقه، نستلهمه، ثمّ نعود لنتابعَ خطَّ المسيرة، باتّجاه المستقبل.

والمهمّ أيضًا أنّه يخدُمُ غاية الفنّ الّتي تتجاوز الحدود الجغرافيّة والزمنيّة.

فالفنّان الّذي قدّم لنا هذه الآيات لم يشترطْ حصرها في بقعة معيّنة من بقاع الأرض، إنّما أراد منّا أن نحبّها مثلما أحبّها هو، وأفنى في إبداعها، نُسغَ الجسد، ونورَ العينين».

قلتُ وكأنّني أخاطبُ نفسي:

– التّماثيلُ أيضًا تطلبُ الحبّ...

وماذا عن الإنسان، يا سيّد التّماثيل؟...

ماذا يطلبُ الإنسانُ كي يستمرَّ في الوجود، غير أن يكونَ مغمورًا برحمةِ الحبِّ والحنان؟...

لم أَكن أرغب من هاوي التّماثيلِ والتّحفِ بأيِّ جواب. لقد سمعتُ الجوابَ يتسرّبُ من بين ذبذباتِ الأنغامِ الموسيقيّة، يهتفُ به صوتٌ يُغنّي آلام العصر؛ يقول:

«الرّحمة، هي كلّ ما نحتاجُه يا صديقي... لأنّ الحبَّ باتَ شحيحًا، ولم يعد بذارُهُ وافرًا في الكون».

بطاقة معايدة

بين يديّ بطاقةُ معايدةٍ غيرُ عاديّة؛ آستلمتها من صديقة تعيش في الغربة.

الكلماتُ في الصّفحةِ الدّاخليّة تحمل إليّ أطيبَ التّمنّيات.

لكنّ الّذي يجذب العين، ويُدهش العقل، هو رسمٌ بالألوان، لباقةِ أزهارٍ رائعة.

فهي تشبهُ أزهارَ الحدائق والبراري، وتختلفُ، في الوقت نفسه، عن كلّ ما حطَّتْ عليه عيناي من أزهار.

وقد أضافت الصّديقةُ إلى تمنّياتها هذه العبارة:

«تأمَّلي هذه اللّوحة، فقد رَسَمَتْها آمرأةٌ... بأَسنانها».

وأُتابعُ الحكايةَ المكتوبة على ورقةٍ منفصلة عن البطاقة:

إنّها آمرأةٌ حُرِمَتْ نعمةَ التحرُّكِ أسوةً ببقيّة النّاس؛ فهي مشلولةُ اليدين والرّجلين، مُقعدة. لكنَّ عقلَها الوقّاد يتوهّجُ ويتألّق، ولا يرضى بأن ينطفئَ في الجسدِ المتلاشي.

بَحَثَتْ لدى الجسدِ عن أداةٍ تلبّي رغبتَها في ممارسةِ الرّسم، فما وجدت غير أسنانِها.

أَمْسَكَتِ الرّيشةَ بأسنانِها وبدأتْ ترسم.

لم يكن الأمرُ سهلًا. لقد تَوَفَّرتِ الرّغبةُ، لكنّ النّقص كان في المعرفة والتقنيّة.

سَعَتْ إلى أستاذٍ يُعلّمها قواعد فنّ الرّسم وتقنيَّاتِه فوجدته.

كان فنّانًا يبحث عن مغامرةٍ خارج حدود الجسد، ومقاييسِ الشّكل واللّون؛ فكانت له تلك المرأةُ النّادرة، واسطةً لآجتراحِ المعجزة.

فترةُ تدريبٍ عاديّة استغرقت بضعةَ أشهر، ولَفَظَ المعلّم بعدَها حُكمه:

– بإمكانك أن تُمارسي فَنَّكِ بحرّيّة، وبعيدًا عن رقابةِ عيني.

إبتسمتِ الفنّانةُ النّادرة، وهي تُدَوِّرُ أسنانها حول طَرَفِ الرّيشة، وتتأمّل وجْه أستاذها، قبل أن تنكبَّ على الرّقعةِ البيضاء أمامها، تزرعُ فيها العينين اللّتين أنارتا سبيلها، والفمَ الّذي زوّدَها ببسماتِ التّفاؤل، والحاجبين اللّذين ما تَرَكا مناسبةً إلّا وارتفعا إعجابًا بموهبتها...

ورصّعتِ الورقةَ بالجبينِ الصَّبوح، غيرَ ناسيةٍ خطوطَ العزم والإرادةِ القويّةِ البارزة فيه. وقدّمتْ نتيجة عملها: «هديّة إلى أستاذي من تلميذتِك المطيعة».

إنحنى المعلّم وقَبَّلَ جبينَها وهو يُتمتم:

– إنّها أعظَمُ شهادةٍ أتسلّمها.

وتابعتِ الفنّانةُ مسيرتَها بثقةٍ واعتزاز.

لم تعُدْ تَهْتَمُّ برسمِ الوجوه، بل اختارت الأزهارَ، الّتي تقول فيها:

«أريدُها تحيّةً، تحملُ العطرَ واللّونَ والنّورَ والمرَح إِلى أناسٍ لا أعرفهم، وقد يكون، في دروبهم بعضُ ما في دربي من عقبات.

أُريدُها رسالةً من امرأة مغروسةٍ في زاويةٍ من زوايا الكون؛ لكنّها تسعى أبدًا إِلى الآتّصالِ بالآخرين، عبر أقنيةِ الوعي، والذّوقِ والحسِّ المرهف.

وخطوطي المفروشةُ فوقَ ورقةٍ بيضاءَ هي خلاصةُ النّورِ في حياتي. نور أتمنّى أن يسريَ، في كلّ نفس غزتها ظلماتُ اليأس.

وخطوطي هي قطاراتي المسافرةُ عبرَ الصّحاري المجهولة، تنقلُ، إِلى أناسٍ أجهلُهُم، تمنّياتِ الخيرِ والمحبّة، وتُعبّر عن مشاركتي في مهرجانِ الحياةِ الدّائمِ الزهوِ والتألّق».

الكرَّاز.. العبقريّ

حين نزور المدن الأوروبيّة، شرقيّةً كانتْ، أم غربيّة، لا نَسْتَغْرِبُ وجودَ التّماثيلِ في السّاحاتِ العامّة، وعلى ناصياتِ الشّوارعِ الكبرى، كما في الحدائق والغابات.

وتلك التّماثيل تُقامُ عادةً للأبطال الّذين سجّلوا مآثرَ في الوطنيّةِ بطرقٍ منوّعة، أو تكون للمفكّرين الّذين رفعوا بلادَهم على سلالمِ التّقدُّم، أو للفنّانين الّذين أضافوا إلى جمالِ الطّبيعة، في أوطانهم، روعةَ الإبداعِ الفنّيّ، إن في الموسيقى أو في الرّسم والنّحت.

وهي تُقام أيضًا للشعراءِ والأدباءِ، الّذين سكبوا قرائِحَهُم أشعّة نور، لا يُطْفِئُ سناه مرورُ السّنين.

لكنّ التّمثالَ الّذي طالعني فوقَ ربوةٍ صغيرة، مشرفةٍ على مدينة «كارلوفي فاري» – وهي منتجع صحّيّ في «تشيكوسلوڤاكيا» – أقول: إنّ ذلك التّمثال لم يكنْ لأيٍّ ممّن سبق ذكرُهم؛ كما أنّه لم يكن لبشر مطلقًا، بل لكرَّاز ماعز.

صدّقوا أو لا تصدّقوا. هذا ما أبصرتهُ بعينيّ، مُشرفًا من فوقِ الرّبوة، ومطلًّا في لوحاتٍ وتماثيلَ بجميع الأحجامِ والأشكال.

وآستغربتُ لغزَ تمثال الماعزِ هذا.

لكنّ مرافقنا التشيكيّ أزال دهشتي واستغرابي حين بدأ يَشْرَحُ لنا سرّ ذلك التّمثال.

قال إنّ وجودَه فوق التلّة يعود إلى مئات السّنين. لذا بات النّاسُ يعتبرونَهُ من المعالمِ الطبيعيّة.

قلت:

لكنّه ليسَ طبيعيًّا، بالنّسبة إلينا. فقد أبصرنا تمثالًا لِـ«بتهوڤن»، ولم نستغرب كما علمنا أنّ الغابة الكثيفةَ المحيطةَ بالفندق تحملُ آسمه.

ذلك أنّ الموسيقيّ العظيم كان يقصد المنتجع مرّة كلّ سنة، ليُشفى من آلامٍ معويّة.

وحفظًا لذكرى زياراته، رفعوا له تمثالًا وأطلقوا آسمه على الغابة... أمّا الماعز؟...

إبتسم الدّليل وقال:

– لا تعجبي إذا قلت لك إنّ هذا الكرّاز «المعرِّم» فوق التلّة هو السّبب في وجودكم هنا، أنت وجميع السيّاح. ومن قبلكم «بتهوڤن» وملوك أوروبا وأباطرتها. وقد زاروا هذه المدينة، وخلّد زيارتهم أحد الفنّانين، فرسم جداريّة، لا تزال زاهية حتّى الآن.

كلامُ الدّليلِ زاد فضولي، فتابعتُ الإصغاء، وتابعَ مُحدّثي حكايته.

– قبل ستّمئة سنة، تقريبًا، لم تكن هذه المدينة قائمة.

بل كانت قريةً صغيرة.

وكان في هذه القرية معّاز، يسوقُ قطيعَه، كلّ يوم، ليسرّحه فوق الهضباتِ المحيطةِ بالقرية.

وفي أحد الأيّام، آفتقدَ الراعي كرّاز قطيعِهِ فلم يجدْهُ. وخشي أن يكون ذئب شَرِس قد خَطَفَهُ، في غفلة منه.

فترك القطيع، وراح يناديه ويبحث عنه، حتّى كاد ييأس، وفجأة أبصره خارجًا من مغارةٍ، حفرتها عناصر الطبيعة، وسط غابة من الصّخور.

إستغربَ الراعي وجودَ كرّازه في ذلك الكهف، حيث لا شجر ولا نبات.

وتكَرَّرَ غيابُ الكرّاز في اليوم التّالي، والّذي بعده. فقرّر الراعي أن يدخلَ بنفسه ذلك الكهف.

وتوغّل فيه، حتّى سَمِعَ خريرَ ماءٍ آتيًا من الأعماق، لكنّه لم يُبْصِرْ أثرًا للماء.

حين رجع إلى القرية، أخبر المختار بمغامرةِ كرّازه، وآكتشافِهِ الماء.

وتألّفت على الأثر لجنةٌ من خبراء الطّبيعة لتكشفَ سرَّ الكهف.

وكم كانت الدّهشةُ عظيمةً، حين آكتشف الخبراء، في أعماقِ ذلك الكهف، ينبوعَ مياهٍ معدنيّة، تغلي في جوف الأرض.

إهتمَّ المسؤولون بالأمر، فأنشأوا ورشة عملت أيّامًا، وأسابيع، على تفجير الينابيع الكامنةِ في الأعماقِ الخفيّة.

ولمّا أُبلغ الأمبراطورُ بالنّبأ، حدّدَ موعدًا لتدشين الأبنية الخاصّة، الّتي شُيّدَتْ حولَ الينابيع. ودعا إلى الآحتفال زملاءَه الحكّامَ من أباطرة وملوك الدّول الأوروبيّة.

تلك الحفلةُ التّاريخيّة هي الّتي خلّدها الفنّان في لوحة تُطالعُ السيّاح بما رسم فيها، كلّما أطلّوا على جدارِ القصرِ

القديم، وقد تحوّل إلى واحدٍ من الحمّامات العديدة الّتي تزخر بها المدينة.

ومنذ ستّمئة سنة، والنّاس يقصدون «كارلسباد» أو حمّامات كارل – كما كانت تُسمّى – وينعمون بالمياه المعدنيّة؛ يشربونها حسب وصفات الطّبيب، أو يستحمّون فيها للرّاحة، والشّفاء.

وكبرت القرية بفضلِ تلك الحمّامات، وأصبحتْ مدينةً، هي اليوم إحدى أشهرِ المدنِ الّتي يقصدها السيّاح للاستشفاء...

والمياهُ المعدنيّةُ الّتي تمّ آكتشافها، بفضل كرّاز الماعز، باتتِ الثروةَ الطبيعيّةَ الأكثر أهمّيّة، في المنطقة.

فهل يُسْتَغْرَبُ أن يُرفع تمثالٌ للكشّاف الأوّل فيها؟!

توقّف محدّثي عن الكلام بآنتظار سؤالٍ جديدٍ لم أطرحه عليه؛ فقد كُنْتُ موافقةً تمامًا على كلامه. وزالت

دهشتي، وصرتُ أستأنِسُ بإطلالة الكرّاز علينا، أربع مرّات في اليوم، أيْ كلّما اتّخذنا طريقنا نحو الينابيع، صبحًا ومساءً، ذهابًا وإيابًا.

ومسحت من ذهني خرافة عالقة به، من خرافاتِ قريتنا، تَعتبرُ طلعةَ الماعزِ نحسًا، إن في اليقظة أو في المنام.

فقد آستطاع الكرّاز التشيكيّ أن يَمحُوَ اللّعنة عن بني جنسه، ويُبدّل المفاهيم، لصالحه.

وغفرتُ بدوري لعنزةِ «أبو طنّوس» هجمتَها الشّرِسَة على كروم «وديع الصّافي»، كما ورد في الأغنية الشعبيّة المعروفة. بل صرتُ أتوسّمُ خيرًا في قطعانِ الماعزِ المنتشرةِ في جرودنا.

وحملتُ على دعاةِ إبادتها، وقد أطلقوا الصّرخة قبل سنوات، وأنذرونا بخطر الماعز على الثّروة الحَرَجيّة في

البلاد، وكأنْ ليس هناك من يمسح الخضرة، عن تلالنا وغاباتنا، سوى هذه المخلوقات اللّطيفة، البريئة.

وعادت ثقتي، فتوطَّدَتْ بالماعز وأصلِه، وحَسَبه، وذكائه الفطريّ خلال جولة قمت بها في أميركا...

ففي أثناء مشاهدتي لبرنامج تلفزيونيّ تَبُثُّهُ إحدى محطّات كاليفورنيا، فاجأني المذيعُ، وهو يُعلن تجربة جديدة.

وَتَوَقَّعتُ أن تكون تجربتُهُ حول إحدى الآلات الإلكترونيّة وعجائب «الكومبيوتر»، لكنَّ ما أبصرتُه ألغى من ذهني ما توقّعته. فقد أطلّ كرّاز ماعز، يقود عددًا من قطيعه، بآتّجاه قِمَّةِ الجبل، وعلّق المذيع على المشهد بقوله:

– إن التّحوّلاتِ السّريعةَ في الطّقس أفقدتِ المرصَدَ توازنَه، فباتَ عاجزًا عن ضبطِ التقلّباتِ الجوّيّة، ممّا حدا

بالعلماء على أن يعودوا إلى الوسائل الطبيعيّة لجسِّ نَبْضِ الطّقس.

ولم يجدوا أفضلَ من كرّاز الماعز مُرشدًا؛ لأنّه وثيق الصّلة بالطبيعة. فالمدنيّة لم تُفْسِدْ غريزتَه، وبتلك الحاسّة الغريزيّة، يشعر بما تنطوي عليه الطّبيعة من مفاجآت.

فإذا قاد جماعَتَهُ وصَعِدَ بها إلى التلّة، كان ذلك دليلًا على الصّحو، أمّا إذا عاد مِن القمّة، فذلك إنذارٌ بآقتراب العاصفة.

غريبةٌ أميركا...

وأغربُ ما فيها أن إذاعةَ أحوال الطّقسِ في ولاية كاليفورنيا قد تجاوزت حسابات «الكومبيوتر» وعادت إلى الحسابِ البدائيّ، تأخذ به وتعتمد عليه.

وتستغربون، بعد سماعِ هذه الحقائق، أن يزداد تَعَلُّقي بالماعز، وأن أتحمَّسَ له فأتشدّدَ في الدّعوة إلى

المحافَظةِ على حقوقِ هذه المخلوقاتِ النّافعة، لا لكي نُفيدَ من لبنِها المغذّي والصحّيّ، وحسب، بل لمكانتها المميّزة في الطّبيعة، وحاجة البيئة إليها.

يد القانون

لم تكنْ تلك زيارتي الأولى إلى الجزيرةِ الصّغيرةِ عند الحدودِ الشماليّة من كندا.

فقد سبق أن زرتها قبل عامين، ومرّةً أخرى قبل عشرة أعوام.

وعرفتها أيّام الثّلوج والعواصف، حين لا يعود هناك فاصلٌ بين الأرض والفضاء، ويتحوّل الأفقُ من الجهات الأربع إلى طائر أسطوريّ، يحوم فوق أراضي الجزيرة، يَنْفُخُ العواصف وَيُشعِلُ البروق ويرسل الرّعود، ويغرسُ الثّلجَ والصّقيعَ، ويَطْرُدُ الإنسانَ طردًا من الشّوارع، ومن وجه الطّبيعة. فيتآوى في دهاليزِ الذّات، يتدفّأُ على رمادِ الذّكريات، خصوصًا متى كان غريبًا عن الدّيار، وقادمًا من بلاد الأنس والشمْسِ السّخيّة.

أو أنّه يهربُ إلى تلك المساكنِ الخشبيّةِ المبطّنةِ بكلّ المبتكرات الحديثة، لتردّ عنه مخالب الصّقيع.

وللصّقيع، في تلك البلاد، أكثرُ من مخلبٍ وناب. فهو يهجُمُ على الإنسانِ ومُحيطه، بلا رحمةٍ، ودون إنذار، فتهاجِرُ الطّيور، وتهبطُ الأسماكُ إلى أعماق الأوقيانوس، وتسقط آخر ورقةٍ من أوراق أشجار الحدائق، وتقفُ الغاباتُ عارية وذليلة، بآنتظار إطلالةِ الرّبيع.

ويَسْتَخدِمُ الإنسان كلَّ ما تعلّمه، بالخبرة أو بالسّليقة، وما وَهَبَتْهُ الحضارةُ من تقنيّة، لمقاومة الصّقيع القاهر.

وقد عِشْتُ أيّامًا سجينةَ المنزل بسبب الصّقيع. وقتلني، ألفَ مرّة، شوقي إلى الخروج والمشي في الشّارع.

وكانت العواصفُ المتواصلة تَسْحَقُ ذلك الشّوقَ في نفسي، وتغرسُ مكانه السّأمَ واليأسَ والرّتابة.

وكانَ يأسي يتكثّفُ حين أُفكّر بالأحبّاء الّذين لن يعودوا، مثلما سأعودُ أنا، بعدَ أيّامٍ، ليعانقوا ربوعَ الوطنِ،

وشَمْسَه الدّافئة... وهم يقيمون، في أرْضِ هِجْرَتِهِم، ودنيا اغترابِهِم، صابرين على قَدَرِهِم، منتظرين مَنْ يأتيهم، ذَاتَ يومٍ، بالفرجِ الكبير.

قُلتُ إنّها لم تكنْ زيارتي الاولى، وقد وقّتها في مَطْلَعِ الرّبيع، أجمل مواسم تلك الجزيرة، على الإطلاق.

ذلك أنّ العواصفَ الثّلجيّةَ تبدأ بالانحسار، مُخَلِّفةً بعدها أرضًا مشتاقةً لمعانقةِ الحشائشِ والزّهور، وشواطئَ تفتحُ أذرعَها لكلِّ ما يسبح في الماء، وما يدبّ حولها، من غرائب المخلوقات.

أمّا الغابات فترتدي ذلك الثّوب الريّان من الخضرة الشفّافة، إذ ترتقي البراعمُ الغصونَ، معلنةً انتصارها على الجمود، وقيامَتَها من رُقادِ الأشهرِ القاسية.

وكُنتُ، لدى وصولي إلى الجزيرة، أشكو من شدَّة الإرهاقِ الجسديِّ والنفسيِّ، وأطلُبُ الراحة؛ فوجدْتُها

بين أهلٍ غمروني بعاطفتهم، وأرضٍ رحبةٍ، ولكن ذات طبيعةٍ وحشيّةٍ، وغريبة.

وبدأتُ أُغَيِّرُ رأيًا كَوَّنْتُهُ خلالَ زيارةٍ سابقة.

ونسيتُ تلك الطّبيعة الّتي كانت تفتحُ شدْقيها بشراسة، في الشّتاء، وتُهَدِّد الإنسانَ في وجوده... وعادَتْ، في نظري، الأمَّ الرّحوم، فآرتميتُ في حضنها، أطلبُ الرّاحةَ والأمان.

وكم كنتُ بحاجةٍ إلى ساعديْها يعيدانِ علاقةً حميمةً بيننا، قطعتْها سنواتُ الحربِ القاسية.

وفي أحد الأيّام، اقترح عليّ أخي، وكنتُ ضيفَتَه، أن أرافقَه في رحلةِ صيد.

وسألتُهُ بدهشة:

– أنا أصطاد؟...

فآبتسم وقال:

– الرِّحلةُ ممتعة. ولا بدّ من زيارةِ تلك الأماكن حيث الأنهر والبحيرات، كي تُكْمِلي رسْمَ الصورة، عن حياتِنا هنا.

وفي غضون لحظات، كنّا نشقّ طريقنا، نحو تلك الأنهرِ والبحيرات الرائعة، حيث يَسْمَحُ القانون للمواطنين بأن يَصيدوا السمَكَ وحيواناتِ البحر بأعدادٍ مُحدّدة.

وأتوقّفُ عند كلمةِ محدّدة هذه لأشهد على تقيّد المغترب بالقانون.

ذلك أنّ أحدًا من الصيّادين لا يتخطّى الرّقمَ المحدّدَ في إجازةِ الصّيد، كما أنّ أحدًا لا يخرجُ ليصطادَ، قبل أن يُعطى الضّوء الأخضر الّذي يعلن بدء موسم الصّيد.

وطبعًا ليس من رقيب أو يد للقانون، في تلك البراري الشّاسعة، والشطآن اللّامحدودة، فقط الإنسان المنضبط الّذي يدرك معنى المسؤوليّة، ويلتزم حدودَ حرّيّته

الشخصيّة، كي يَتركَ مجالًا لحرّيّةِ غيره، حتّى لو كان هذا الغيرُ أسماكَ البحار أو حيوانات البراري.

لكنّ هذا كلّه يبدو عاديًّا، حيال المشهدِ الأخير من تلكَ الرّحلة.

كان علينا أن نجتازَ، في طريقِ العودة، أحدَ الشّوارعِ الرئيسيّة في المدينة.

والشّارع طبعًا مقيّد بإشارات المرور الّتي تنظّم السّير بأضوائها الخضراء والحمراء والبرتقاليّة، وهي تنتصب أمام خطوط المشاة، حيث يُحْتَرَمُ مرورُهم آحترامًا تامًّا.

والسّائقُ، أيًّا كان، يتقيّدُ بقانون السّير، وسائرِ القوانين، إلى درجةِ التّقديس.

كذلك يتصرّف المُشاة، فلا يجتازُ أحدُهُمُ الشّارعَ، قبل أن تغمزه الإشارة الخضراء.

كنّا في قلبِ ذلك الشّارع حين أبصرتُ آمرأة في منتصفِ العمر، تجتازُ المسافة بين الرصيفين، خارجَ الخطوطِ المرسومة، متجاهلةً الضّوء الأحمرَ وجميع الأضواء الأخرى.

وبالطّبع توقّفتِ السيّاراتُ، وآنتظرتْ حتّى تَمُرّ المرأةُ بسلام.

لم أسألْ عن الشّرطيّ، إذ لا وجودَ له في تلك المدينة، ما دامَ كلّ مواطن شرطيًّا ورقيب نفسه.

إلتفتُّ إلى أخي متسائلة:

– غريبٌ أمرُ تلك المرأة!...

هذه أوّلُ مرّةٍ أُبصرُ فيها مَنْ يتجاوزُ القانون في هذه البلاد، والنّاسُ راضون...

بل يكاد الواحد من سائقي السيّارات حولنا يرفَعُ قبّعتَه مُرحِّبًا بالّذي يجري.

قال أخي دون أن يبتسم:

– إنّها آمرأة مريضة.

وعندما لاحظ استغرابي تابع:

– إنّها من مصحِّ الأمراضِ العقليّة.

والقانون يَسمح لهؤلاءِ المرضى بأن يَتَجوّلوا بين النّاس، وينزلوا إلى الأسواق كي يشتروا ما يحتاجون إليه، أو يتنزّهوا في أجواء طبيعيّة، ثمّ يعودوا إلى المصحّ.

وسألته:

– كيف عرفْتَ أنّها مريضة؟

فابتسم لبداهةِ السّؤال:

– نزلاءُ هذا المصحِّ، وحدَهُم، يتجاوزون القانون.

نعرِفُهم من تَصَرُّفِهِم، أنا، وسواي من سكّان هذه المدينة.

لذا نداريهم. نتوقّف كي يمرّوا، ونساعدهم إذا آقتضى الأمر.

كما أنّ أصحابَ الحوانيتِ والمطاعمِ يُرحِّبون بهم، ولا يدَعونَ واحدًا منهم يشعر بغربتِهِ عن المجتمع.

لم أجرؤْ على أَن أُجري مقارنةً، كما أفعلُ دائمًا، بين حالِ الآخرين وحالِنا، فيما يتعلّق بحُرمَةِ القانونِ على الاقلّ.

بقيتْ صورةُ المرأةِ الضّعيفة، وهي تَعْبُرُ الشّارعَ، متجاوزةً الضوءَ الأحمر، ماثلةً في مخيّلتي. تُقابلها وجوه النّاس الّذين لا أعرِفُهُم، من السّائقين، وقد تجمّدوا داخل سيّاراتهم، ينتظرونَ مرورَها، وبكثيرٍ من الصّبر والاحترام.

وكان ذلك المشهدُ أفضلَ صيد أصبتُه.

بداية.. في الثمانين

كُنْتُ أُقلّبُ مجموعةَ صُوَرٍ قديمة، آلتقطتها في مناسباتٍ شتّى، لأشخاصٍ صادَفتُهُم خلالَ عملي الصحفيّ، حين أطلَّ عليَّ وَجْهُ تلكَ المرأةِ الأجْنَبِيّة، الّتي آلتقيتها ذاتَ يوم في حَرَمِ الجامعة.

لَفَتَني فيها بياضُ اللِّمَّة، وسخَاءُ التّجاعيدِ فوق الوجْنَتَيْن، وحولَ الفم والعينين و... رُزمَة كتبٍ وأوراقٍ بين يديها.

أثارَ مَنْظَرُها كلَّ دوافِعِ الفُضُولِ في نفسي، فآقْتَرَبْتُ أُسَلِّم عليها، وأَسْأَلُها عمّا إذا كانت مُسْتَمْتِعَةً بالنّزهةِ في هذا الجوِّ الرائع، حيثُ الخُضْرَةُ والزَّهْرُ، والأشجارُ، وزقزقة العصافير، وذاكَ المدى الأزرق، والّذي يغرفُ

المرْءَ فَجْأةً بيدٍ عِمْلاقَة، ويَسْكُبُهُ نقطةً غامضةً في الأفق.

إِبْتَسَمَتْ وهي تَردُّ على سؤالي:

– أنا هنا كلَّ يوم... إنّما ليسَ للنّزهة...

إزداد فُضُولي، وأَطْلَقْتُ السّؤالَ الثّاني:

– وهل عِنْدَكِ أقاربُ في الجامعة؟

– بل أنا طالبة.

– سيّدتي!

أَفْلَتَتِ الصّرخَةُ من حَلْقي مع عشرين علامة تَعَجُّب.

وتابَعَتْ هي إذ لاحظت تعجّبي:

– أَجَلْ... أنا هنا تلميذة. عُدْتُ تلميذة.

– وعُمْرُك... كم يَبْلُغُ عُمْرُكِ سيّدتي؟

– أنا قد ناهزت الثّمانين.

– ولم تَسْأَمي تكاليف الزمن؟

– بل أُحِسُّ أنّني في إحدى بداياتِ العمر.

– أوَتُخْبرينني عن تلك البداية؟

تأَمَّلَتْني بعينين زرقاوين، لم تُقَدِّما آستقالتهما من الآهتماماتِ الدُنْيوِيّة وقالت:

– صحيحٌ! ليسَ أمرًا عاديًّا أن يبدأ المَرْءُ دراسَتَهُ في مثل عُمري.

لكنّ لي فَلْسَفَةً تختلف عن فلسفة الآخرين. فأنا، عندما أفتحُ عينيَّ على النّهارِ الجديد، أنهضُ في كُلِّ الفُصولِ، لأُواجِهَ شروقَ الشّمس، أو آنتِشارَ السّحب، وأَسْتَحمَّ بالأنْوارِ المُشِعَّةِ حولي، ثمّ أَمْسحُ وجهي بكلتا يَدَيّ، وكأنّني أَغْسِلُهُ بنورٍ يتدفّقُ من الأعالي، ثمّ أردّد:

– شكرًا، ربّي، من أجلِ بداية جديدة...

وإنّ شعوري بهذا التجَدُّدِ لا يُفارِقُني وأنا أَعْبُرُ اللّحظاتِ، في اليقظةِ، كما في المنام.

وقاطعتُها:

– لكنّ ما تَتَحدَّثين به هو غَيْرُ البدايةِ الدراسيّة.

إبْتَسَمَت ابْتِسامةَ من يَغْفِرُ للصغارِ سَذاجَتَهم، وقالت:

– يا بُنَيّة... الحياةُ مدرسةٌ مُشَرَّعَةُ الأبواب. وهي تَدْعونا في كلّ لحظة، لأن نتأمّلَ ونتعلّم. فإذا أضَفْنا التَّفاؤُلَ إلى علومِها الدراسيّةِ العالية، فأيَّ غِنًى تجني نُفُوسنا؟

والآن، عَفْوَكِ، فإنّ حِصَّةَ الدّرسِ على وَشكِ أن تَبدأ.

ثمّ انْطَلَقَتْ بِسُرْعةٍ وَشَغَفٍ وكأنّها تلميذة في أوّل الطّريق...

بعد ذلكَ، صِرْتُ أَلْتَقيها كلَّ يومٍ، تقريبًا، فَنَقِفُ، وَنَتَحَدَّثُ عن الحياة، والتقدّمِ العلميّ، والوجودِ، وما يُحيطُ به من فَلْسَفات...

ولا تلبث أن تودّعَني وَتَعْبُرَ بسرعة، إلى العلمِ والمعرفة.

وفَهِمْتُ منها أنّها اضْطُرَّتْ إلى مغادرةِ المدرسة في سنّ مُبْكِرة، لتعملَ في أحدِ المصانع، بعدما فَقَدَتِ الأسرةُ مُعيلَها، وكانت هي الآبنةَ البكر، فحَمَلَتْ قسطًا كبيرًا من همومِ العائلة.

ثمّ انتقلتْ، بعد سنوات، إلى الحياةِ الزّوجيّة، مع كلّ ما تَتَطَلَّبُهُ تلكَ الحياةُ من تَضْحيَةٍ وجَهْد، وكأنّما سوءُ الحظِّ أبى إلّا أن يَظَلَّ رفيقَها في هذه المرحلة، إذ فَقَدَتْ زوجها.

وكان الأولادُ في سنٍّ لا تَسْمَحُ لهم بالعمل. فَعَمِلَتْ في أكثَر من وظيفة، كيْ تُؤمِّنَ لهم حياةً رصينة، وتمنحَهُمُ الفرْصَةَ، لمتابعةِ دراستِهم.

وبالطّبع، تَفَرَّقَ الأولادُ بعدما كبروا، وَبَقيَتْ وحدَها، فرأتْ أنَّ أَفْضَلَ ما تقومُ به هو أن تعودَ إلى المدرسةِ لِتُنْعِشَ معرفتَها بالنّبْضِ الحيّ، والإيقاعِ المُتَحرّكِ للوجود.

وفي يوم، أخْبَرَها أحدُ أبنائِها أنّهُ مُسافِرٌ مع عائلته، إلى بيروت، حيثُ سيكونُ أستاذًا في إحدى جامعاتها، ودعاها إلى مرافَقَتِه، فلم تُفَوِّتْ هذه الفرصةَ الذّهبيّة، وهي المُؤْمِنَةُ، بأنَّ الفُرَصَ تأتي في كلّ سنّ، وتُطِلُّ عند أيِّ مُنْعَطَفٍ، وما على الإنسان إلّا أن يكون مُتَيَقِّظًا، كي يَغْتَنِمَها ويَجْني ثِمارَها.

وهكذا حَزَمَتْ حقائِبَها وجاءتْ تَتَعَرَّف دُنيا جديدة وحضارة غريبة عليها، وتُسَجِّل اسمَها طالبةً، في عِدَادِ طلّابِ الجامعة.

– وماذا تدرسُ سيّدتي؟

– الفلسفة والتّاريخ.

مُعظَمُ الطلّابِ يتهرّبونَ من دراسة التّاريخِ في مراحلها الأولى، لأنّهم يجهلونَ كم يُمْكِنُهُمْ أن يَجْنوا من القراءةِ فوقَ كَفِّ الزّمن.

والإنسانُ لا يُدْرِكُ معنى تلك الدّروس، إلّا بعدما يَبلغ مُستوًى من النُضْجِ، يُؤَهِّلُهُ لأن يَفْهَمَ معنى ما قرأ، ويَلْتَقِطَ الرُموز الّتي تَرْسُمُها الكلماتُ عند كلّ مُنْعَطَف من منعطفات الحياة.

أمّا الفلسفة فهي الصَّحْنُ اليوميُّ الّذي تَسْكُبُ فيه الحياة غذاءَنا الفكريّ والروحيّ.

والّذين لا يصيبون قَدْرًا وافيًا من ذلك الغذاء يَبْقَوْن في حالة جوع دائمة، بل يُصابون بنقصٍ في ذلك الغذاءِ السّامي، فتتصلَّبُ أَعْصابُهُم، وَتَتَشَنَّجُ قرائِحُهُم، ويَخْتِمون على روافدِ العُمر، بالشمعِ الأحمر، وبكلِّ الوسائلِ العازلةِ، ثمّ يبدأون الآنزلاقَ في مهاوي الآندثار.

وعلى عكسِهِم يبقى الشَّغوفون بالمعرفة، وبفلسفةِ الوجود، ومعنى أن نكونَ، وكيف نَسُوقُ الحياة. هؤلاء إذا ساعَدَهُم الحظُّ، ووجدوا لهم سبيلًا إلى المعرفةِ والسُمُوِّ، تنتفي عندهم كلُّ الشّهوات الدّنيا.

من خلالِ الفَلْسَفَة، يبحثُ المرء عن ذاته السّامية، حتّى إذا وجدها، تابَعَ بقيَّةَ أيّامه، مُنشرحًا مطمئنًّا.

وآعترضتُ بسؤال:

– وهل من الضّروريّ أن نرتادَ الجامعاتِ بحثًا عن الطّريق؟

وهزّت تلك السيّدة رأسها لتردّ بالإيجاب:

– الجامعات، وكلّ منابعِ المعرفةِ السّامية. ولا يجوز أن نَضَعَ الحواجزَ ونرفعَ الجدران، بين العلم داخلَ الجامعة وذاك الّذي يَأتينا حَصيلةَ الخِبْرَةِ والممارسة، وعراكِنا في ساحِ الحياة.

وإنّي أتحدّثُ عن خبرةٍ واسعة، وأقولُ لك، يا بُنيّة:

– إنّ كلَّ المساعي الّتي سَعَيْتُها، وكلَّ المعاركِ الّتي خُضْتُها، بقيتْ تحومُ في شبهِ فراغ، إلى أن ثبّتُّها بأسماءِ المعرفةِ والعلوم، وأدخلتُها الجامعة معي، لكي تتعرّف ذاتها.

ويا بُنَيّة... لم تفتني مَعْرِفَةُ الدّافعِ الّذي جَعَلَكِ تُعاكِسينَني، وتَطْرَحينَ عليّ أسئلةً فُضُوليّة، لا توجّهينها عادةً إلى سواي من الطلبةِ العاديّين؛ أي الّذين هم في سنّ الشّباب... وأقولُ لك:

– ما دامَ في كياني عِرْقٌ يَنْبِضُ، أريدُه أن يَنْبضَ بوعي منّي.

ما دامتْ خُطايَ تَتَحَرَّكُ في الوجود، أُريد أن أفهمَ وأُدركَ مغزى حركتها.

وما دامتْ هناك ينابيعُ تَتَدفَّقُ بالمعرفةِ، وتُغنينا، كلَّ يومٍ بالجديد، فسوفَ أظلُّ من روَّادِها، لأروي ظمأي إلى الحقيقة، ولأبقى سائرة مع الموكبِ المتحرّكِ أبدًا إلى الأمام، إلى حيث المهرجانُ العظيم الّذي تُقيمُه الحياةُ لأبنائها، كلَّ يوم، بل كلَّ لحظة.

« طبق محشي ملفوف »

أن تختلط الأمور إلى درجة يصبح فيها «طبق محشي ملفوف» قضيّة، وقضيّة مؤلمة، هذا ما لم يكن في حسابي، وما لم أضعه على قائمة اهتماماتي وأنا أخطّط للرّحلة.

إنّ تلك السّفرة من بيروت إلى «هنتنتون وِسْتْ فرجينيا» كانت في الواقع بقعة الضّوء على خارطة تنقّلاتي. وحين قرّرت السّفر، اشتريت بطاقة «فوزا» وترجمتها (VISIT U.S.A).

أمّا التّرجمة الصّحيحة فهي أن تزور الولايات المتّحدة بسعرٍ اقتصاديّ؛ فالبطاقة تخوّلني التّنقّل من الشّاطئ الشّرقي في نيويورك إلى أقاصي الشّاطئ الغربيّ في «لوس أنجلوس».

وكانت «هنتنتون» في مكان ما في الوسط، فقرّرت أن أتوقّف فيها وأنا متّجهة غربًا.

وقد أجريت، لتلك الغاية، اتّصالات بالأقارب الأحياء. وقدّرت أنّهم ينتظرونني بشوق يعادل شوقي إليهم. واحد منهم فقط أخلّ بالوعد؛ فقد رحل الخال «تي.آي T.A» قبل يومين من الموعد المقرّر لوصولي، وهكذا لم تُتَح لي الفرصة لوداعه، بل إنّ وصولي تزامن مع الموعد لمراسم الجنازة ثمّ الدّفن.

حزنتُ كثيرًا لتلك المصادفة، لكن، ولمعرفتي الخاصّة بالخال، قدّرت أنّه ضرب حسابه، وهو الّذي كان دقيقًا في حسابات الدّنيا والآخرة، فاتّضح له أنّ لقاءنا لن يكون بمرح اللّقاءات السّابقة؛ فهو طريح الفراش، بل إنّه، كما أخبرتني ممرّضته الخاصّة فيما بعد، كان قد فقَد الذّاكرة، وفي معظم الحالات، الوعيَ، وذلك إثْر بلوغه السّابعة والتّسعين من عمره. لذلك قدّرت أنّ لاوَعْيَهُ الرّاقي

تصدّى لي، وحكمَ بأن لا أقابله وهو على تلك الحالة من الضّعف والآنهيار، حتّى يبقى في ذاكرتي الرّجل الجبّار، القويّ الحازم، والّذي نجا بأعجوبة من الموت في الحرب العالميّة الأولى، بعدما شارك في القتال على أقسى الجبهات.

وقد نجح في السّفر بعد هربه الثّالث من الجيش العثمانيّ، ليبني له في أميركا أمبراطوريّة تجاريّة، جعلت آسمه يشعّ على خارطة النّاجحين.

بقي هناك الخالة «بهيّة» وقد مضى على لقائنا الأخير خمس سنوات، حين دُعيت إلى مشاركة عائلتها (الأولاد، والحَفَدَة وَحَفَدَة الحَفَدَة) الآحتفال بذكرى ميلادها التّسعين. وكانت في أوج الوعي والتألّق، ذكيّة، سريعة الخاطر، حاضرة البديهة.

وقد أدهشتنا، يومذاك، بخطابها الارتجاليّ حين آعتلت المنبر لتشكر الّذين نظّموا تلك المناسبة، وتُعدّد

أسماءهم فردًا فردًا، دون أن تنسى ذكر المشقّات الّتي تكبّدوها خلال آنتقالهم من مطارحهم البعيدة.

قلت، وأنا أهبط سلّم الطّائرة الّتي أقلّتني:

– على الأقلّ الخالة «بهيّة» هنا – وسوف أفرح بمشاهدتها، فأعود وضميري مرتاح إلى زيارة الغصن الأخير الباقي على قيد الحياة من شجرة عائليّة غالية آنتسبتْ إليها المرحومة أمّي.

كانت أجواء الحزن تُخيّم على الجميع ساعة وصولي. وشاهدتُ العائلة بكامل أفرادها، مجتمعين في «بيت الموتى» "FUNERAL HOME" حيث سُجّي جثمان الخال، فوق مصطبة عالية، جعلته يبدو وكأنّه في قيلولة ما بعد الغداء، حتّى أنّي، عندما آقتربت منه لأقدّم واجبات الاحترام، مثلما تقتضي التّقاليد، لم أصدّق أنّ الجسد الجميل الأنيق المسجّى أمامي، هو لرجل ميّت. وعادت إلى ذهني دفعة واحدة أوصاف «إيفلين ووه EVELYNE WAUGH» في روايته

الرّائعة «المرحوم» "THE LOVED ONE" وصفه الدّقيق للموت على الطّريقة الأميركيّة، والفنون الّتي يعتمدها الخبراء في تجميل الموتى، وتزيين محيطهم.

نعم، كانت تلك أوّل مرّة أشاهد فيها فقيدًا غاليًا مُسجًّى على الطّريقة الأميركيّة. وٱستغربت كيف أنّي لم أشعر بالحزن مثلما كنت أخشى وأتوقّع، بل كان ما يخالجني شعورًا بالدّهشة والغرابة. وفي تلك السّاعات المليئة بالوجوه، والأفكار والعواطف الجيّاشة وردود الفعل، بقيت الخالة «بهيّة» خارج دائرة ٱهتمامي الحميم. صحيح أنّي عانقتها وقبّلتها، مسلّمةً ومعزّيةً لحظة وصولي، إنّما لم يتوفّرْ لي الوقت كي أنفرد بها إلّا عندما ٱنتهت مراسم الدّفن، وعدنا إلى البيت، وسمعت ٱبنتها «أليس» تؤكّد أنّ الجميع سيلتقون للعشاء في دارها.

ولاحظت أنّ لكلامها تأثيرًا خاصًّا على الخالة «بهيّة». فقد نهضت من مقعدها بالسّرعة الّتي يسمح بها مرضها

الأخير Osteo Porosis، وتوجّهت نحو آبنتها لتهمس في أذنها كلامًا جعل الآبنة تهزّ رأسها، وكأنّما تحاول صرفها عن فكرة، غير أنّها ظلّت مصرّة على موقفها، ممّا جعل آبنة خالتي ترضخ لمشيئة أمّها، فتمضي برفقتها إلى منزلها القائم في الطّرف الآخر من المدينة، لكي تساعدها على إحضار «مساهمتها» في تلك الوليمة... طبق «محشي ملفوف».

«محشي ملفوف»؟

يا إلهي!... ما الّذي جعل الخالة «بهيّة» تقلب الأجواء على تلك الصّورة الدراميّة، فتنقلني من «بيت الموتى» المرتّب والمنظّم في «هنتنتون وست فرجينيا» إلى بيتنا العتيق في «جورة السنديان» وإلى طبقي الشهيّ المفضّل من أيّام الطّفولة: «الملفوف المحشيّ».

وممّا زاد الطّين بلّة أنّها دعتني كي أرافقها في أداء تلك المهمّة، وجعلتني أفهم، بما لا يترك مجالًا للشّكّ أنّها

أعدّت هذا الطّبق، في الأساس، آحتفاء بي، وكنت حاضرة في ذهنها وهي توَضِّبُ أوراق الملفوف الشّهيّة الرخصة، ثمّ تحشوها بالأرزّ واللّحم الضاني: نعم، على الطّريقة التّقليديّة ومثلما تعرفينها هناك في الـ OLD COUNTRY يا HONEY.

بتأثّر شدّيد رافقتُ السيّدتين، ولأنّ حركة الخالة لم تعدْ مثلما عهدتها في السّابق، فقد كان آنتقالنا إلى السيّارة، ثمّ منها إلى البيت غاية في البطء.

وقد تعاونت مع «أليس» كي نساعد أمّها على آرتقاء السلّم ذي الدرجات الخمس، ثمّ لتبلغ المطبخ، حيث تحتفظ بطبق «الملفوف المحشيّ» مجمّدًا في الثلّاجة. كانت الخالة «بهيّة» تقودنا خلال تلك العمليّة، للرفقة فقط، مصرّة على أن تقوم هي بالعمل؛ فالبيت بيتها، والمطبخ يخصّها، وكيف لنا أن ندرك ما الّذي تصنعه في مطبخها، وكيف توضّب شؤونها الداخليّة!

فتحت بابَ الثلّاجة، ثمّ أشارت إلى «أليس» كي تتناول القصعة من فوق الرّفوف، وهذه حوّلتها إليّ، كي يتسنّى لها أن تعيد ترتيب المكان الشّاغر.

وكان الحديث، طوال الوقت، يدور حول هذا الطّبق الشهيّ الّذي من عادة الخالة أن تكرّم به ضيوفها الأعزّاء. ولأنّ زيارتي غالية على قلبها فقد آجتهدت ليكون الطّبق جاهزًا قبيل وصولي.

كنت أصغي إليها، بنصف وعي، أمّا النّصف الآخر فقد غادرني، وآرتحل إلى هناك، إلى مرابع الطّفولة، حيث كان لهذا الطبق طعمه الخاصّ، من دون سائر المأكولات. وكنت أحبّه، من يد الوالدة؛ فيوم تعدنا بطبق «الملفوف المحشيّ» نبلغ ذروة السّعادة والهناء لأنّ ذلك يعني، أيضًا، أن موسم الغرس الشتويّ على ضفّتي نهر الحاصباني على أحلى ما يرام، ممّا يجعل المزارعين

يحملون الملفوف، في «عدل» الخيش الضّخمة وينقلونه فوق ظهور بغالهم القويّة، ليبيعوه في قرى الجوار.

ولملفوف الحاصباني طعم خاصّ، لم أعد أذوق مثيلًا له منذ أن غادرت تلك الديّار، قبل أربعين سنة. فللأوراق لونها الفضّي، وهي رخصة، ترشح الماء العذب الّذي تتغذّى به عروقها، مجبولًا بعصارة التّراب الأحمر الثريّ، الّذي، بفضل كيمائيّة سرّية فيه، يضفي طعمًا سكّريًّا على الخضر: أجزرًا كانت أم شمندرًا، خسًّا أم قنّبيطًا.

وكنّا ننتظر تلك الأطايب في أيّام قليلة، وخاصّة من أيّام العمر، حين تجود الأرض بالخير، بما يسمح بوصوله إلى «جورة السنديان» القرية الشّحيحة المياه، والمعتمدة في مواسمها الشّجَر البعل، الزّيتون وكروم العنب.

وكانت الأسرار الأخرى في تحويل ورق الملفوف إلى ولائم بين يدي الوالدة، وقد ورثت مهارتها ونَفَسَها في فنّ الطّبخ عن والدتها، وربّما عن جدّاتها من قبل.

كنت أجلس قبالتها، أتملّى مشهد أناملها وهي تدور وتلفّ الأصابع الفضّيّة، قبل أن توضّبها في القدر، وترصف بينها فصوص الثّوم البلديّ، ثمّ ترشّ فوقها النّعناع المجفّف وعصير الحامض قبل أن تطبق الغطاء، وترفعها فوق النّار كي تنضج ببطءٍ على حطب السّنديان.

في تلك الأثناء، كنّا نحن، أبناء العائلة، نحوم، مثلما يحوم النّحل حول طبق شهيّ، فهو لا يطيق الفراق أو البعد، ولا يطيق صبرًا بآنتظار النضج، خصوصًا أنّ البخار المنتشر في الجوّ يثير الشهيّة ويسيل اللّعاب. كانت المرحومة جدّتي تجعلني مضرب مثل أمام إخوتي ولِداتي، في بُعدي عن الجشع، مثلما هي أخلاق أولاد الفلّاحين، الممتلئين صحّة وعافية، وتاليًا، شهيّة عظيمة للطّعام.

وكي لا أخيّب ظنّها بي، بقيتُ أُخفي عنها هذا السرّ الخاصّ جدًّا: يقظة الشهيّة حتّى أقصى مداها حين تتسرّب إلى خياشيمي نكهة «الملفوف المحشيّ».

وها خالتي الآن، تضع القصعة بين يديّ، وتهفّ منها رائحة مريبة، وأشعر بأنّ قلبي ينتفض وكأنّما يتهيّأ لإعلان نبأ سيّئ.

ثمّ ها إنّي لا أتوانى عن إعلان ذاك النّبأ حالما أنفرد بآبنة خالتي، فأدعوها لتشمّ معي رائحة الطّعام.

وما كادت تفعل حتّى سدّت أنفها، ممّا لم يترك أيَّ شكّ بأنّ الطّعام فاسد.

ولم تكن في حاجة لتشرح لي الأسباب، كي تفهمني بأنّ أمّها بدأت، في الآونة الأخيرة، تدخل مناطق النّسيان، وتفقد تدريجًا الحسّ بالوقت. وقد تكون، في إحدى تلك السّهوات، نسيت الطبق خارج الثلّاجة زمانًا لم يسجّل في وعيها. لكنّ المشكلة الكبرى لم تعد في الطّعام، بل في كيفيّة نقل الخبر إلى السيّدة المسنّة: كيف؟ وماذا نقول لها؟ وكيف نبلغها نبأً لم يعد مرتبطًا بطبق «الملفوف المحشيّ» بقدر ما له علاقة بالتحوّلات

الرّهيبة والعميقة في كيانها؟ ومع ذلك، كان عليها أن تعرف. هكذا قالت ابنتها المتربّية على الطّريقة الأميركيّة وأكّدت:

– مهما آعتمدنا اللّطف في مواجهتها، فإنّ ذلك لن يخفّف من وقع الصّدمة.

نعم كانت الصّدمة الّتي أصابت الخالة «بهيّة» أكثر ممّا قدّرنا وحسبنا؛ فقد نهضت في البدء تدافع عن حقّها، مؤكّدة بأنّها أعدّت الطّعام مثلما آعتادت أن تعدّه على مدى سنوات من عمرها المديد. وحين آصطدمت بعناد آبنتها، وإصرارها على موقفها، صمتت. وكان صمتها رهيبًا. وكدت أبصر تواريها طيّ دهاليز الذّات، فيما كانت تتقلّص بين ذراعيّ، وأنا أحاول مؤاساتها، والتّعويض عليها بكلام اللّطف والمحبّة.

استثمار القصص: ميرنا داغر

حسّون الغربة

١ – بِمَ كان الصّديق المهاجر يشعر خلال إقامته في بلاد الغربة؟

---

٢ – لماذا احتفظ بالحسّون عشر سنوات في الثّلاّجة؟

---

٣ – كيف صوّرت الكاتبة الغربة في القصّة؟

---

٤ – ماذا نسمّي هذا النّوع من الكتابة؟ وما هي خصائصه؟

---

٥ – ما معنى كلٍّ من الكلمات التّالية:

مثواه : الأولياء:

أرجاء: إنتابني :

٦ – إستعمل كلًّا من التّعابير التّالية في سياقات مختلفة:

أفرغ جعبة الأسئلة :

بدأ صدأ الأيّام يترسّب :

من الحرام أن يُخلف به:

الجبّار

١ – ما هو «السّرد» الإخباريّ؟ وعلامَ يعتمد؟

- **كيف ربطت الكاتبة ما بين الأفكار لإنجاح عمليّة السّرد؟**

- خذ من القصّة أمثلة و شواهد على ذلك.

- في القصّة فكرة أساسيّة تشكّل عنصر الإثارة. عيّنها.

---

٢ – ماذا تعرف عن السّفينة البريطانية «تيتانيك»؟

---

٣ – هل نجحت الكاتبة في تصوير وقائع الحدث؟ ما هو الأثر الّذي تركته هذه الوقائع في نفسك؟

---

٤ – لخّص هذه القصّة في بضعة أسطر.

المدينة والحلم

١ – ضع تصميمًا للقصّة معتمدًا الأفكار الرّئيسة فقط.

---

٢ – هل كانت المدينة الّتي رأتها الفتاة شبيهة بتلك الّتي حلمت بها طويلًا؟ إشرح.

---

٣ – «... كلُّ بناء جديد، لا بدّ من أن يبدأ من منابع الحلم والأمل!»
إشرح هذه العبارة متعمّقًا في مدلولها النّفسي.

---

٤ – أكتب بدلًا من العبارات التّالية ما يؤدّي المعنى نفسه.

وهي تمسح الخاطرة من رؤوسهنّ :

أشجار باسقة تتطاول نحو الفضاء بشموخ :

لا تجرؤ على التحرّر من قبضة أمّها :

٥ – قابل بين حياة أهل المدينة وحياة أهل الرّيف انطلاقًا من هذه القصّة.

بكاء في غابة شماليّة

١ – أرادت الكاتبة أن توقظ في القارئ شعورًا إنسانيًّا. ما هو؟ ولماذا؟

---

٢ – إستخرج من القصّة أهمّ الأفكار الّتي ساقتها الكاتبة من أجل الوصول إلى هدفها.

---

٣ – «وأنا أتأمّل تلك المخلوقات اللّطيفة الجميلة تقفز، وتتعانق وتتمرّغ فوق العشب». إستعمل الأفعال الثّلاثة المتعاقبة هنا، في جُملٍ أخرى من تأليفك.

---

٤ – ما هي العاطفة التي تحرّكت في قلب الصيّاد عندما سمع بكاء الغزال؟ وما تعليقك على ذلك؟

---

٥ – أعد كتابة هذه التّعابير مُغيّرًا في الألفاظ وفي تركيب الجملة:

إخترق بكاؤه صدري.

لكنّ غريزة الصّيّاد الأوّل ما لبثت أن تحرّكت في صدري.

انحنيت أقبّل رأس الغزال.

٦ – خذ تعبيرًا بليغًا من القصّة واشرحه.

---

٧ – أكتب من وحي خيالك تعبيرًا بليغًا، تصف فيه حالة نفسيّة معيّنة.

طبيب مَغْرِبيّ

١ – خذ من النّص ما يدلّ على البيئة الّتي عاشت فيها الكاتبة.

---

٢ – عدّد بعض الأعشاب الّتي تعرفها واذكر منافعها الطّبيّة. هل تعتقد أنّ التداوي بالأعشاب قد أصبح تقليدًا قديمًا أو أنّه ما يزال مفيدًا في أيّامنا هذه؟ إشرح.

٣ – كيف بدا لك الطّبيب المغربيّ من خلال القصّة؟

---

٤ – ما معنى:

التآوي : المصاطب :

ختم الصيّدليّ : أتوسّم :

٥ – خذ من النّصّ تشبيهًا وبيّن أركانه ثمّ اشرحه.

---

٦ – أعط مفرد كلّ كلمة من الكلمات التالية:

الشّكاوي: وعود :

زوّار : أويقات:

المغترب الرّائد

١ – ما الذي دفع الفتى اللّبنانيّ إلى ابتكار أسلوب جديد في مجال البيع؟ وما رأيك في ذلك؟

---

٢ – «لكنَّ حساب الأب... ساعِدَيه» أعد كتابة هذا المقطع بأسلوبك الخاصّ، شرط أن تحافظ على مضمونه وأفكاره.

---

٣ – إستعمل التّراكيب التّالية في نصّ من تأليفك:

لم تكن... وحسب، بل... – لم... ولا... – طمأن والديه إلى...

٤ – لخّص في ثلاثة أسطر ما ورد في هذه القصّة، واذكر الأثر الّذي تركه هذا الشّابّ في نفسك.

٥ – خذ من النّصّ تعبيرًا مجازيًّا واشرحه.

---

٦ – أعطِ ثلاثة من المشتقّات للفعل «عَقَد» وضع كلًّا منها في جملة مفيدة.

«شوف تفرّج... يا سلام»

١ – ما هي الذكريات الّتي تحدّثت عنها الكاتبة في هذه القصّة؟

---

٢ – أذكر أهمّ خصائص القصص التذكّريّ معتمدًا على النّصّ.

---

٣ – ماذا تعرف عن الفنّان الخالد «ميكالانج»؟

٤ – قالت الكاتبة في سياق حديثها عن التّمثال: «إنّه يسجّل الحاضر، ثمّ يرحل به صوب العصور الغابرة». حلّل هذا القول مركّزًا على أهمّيّة الآثار حضاريًّا وثقافيًّا.

٥ – ألّف جملة على كلٍّ من الكلمات والتراكيب التالية، واضعًا حرف الجرّ المناسب مكان النّقط.

هو آية ..... :

خيّم ..... :

وزّع ..... :

لم أكن أرغب منه إلّا ..... :

بطاقة معايدة

١ – ما هو الدّور الّذي قام به المعلّم في حياة الفنّانة المقعدة؟ وما رأيك في ذلك؟

---

٢ – تعمّدت الكاتبة استعمال التّعابير المتناقضة في هذه القصّة. أذكر وجوه التناقض فيها، مظهرًا غاية الكاتبة من وراء ذلك.

---

٣ – وصفت الكاتبة أقسام الوجه، لكي ترسم ملامح المعلّم، وتبرز نفسيّته. هل وفّقت في ذلك؟ كيف؟ وماذا نسمّي هذا النّوع من الكتابة؟

_____

_____

_____

٤ – حاول أن ترسم شخصيّة إنسان تعرفه من خلال وصفك لمظهره الخارجيّ.

_____

٥– ضع الجملة التّالية في المثنّى ثمّ في الجمع.

تابَعَت الفنّانة مسيرتها بثقة واعتزاز.

لم تعد ترسم الوجوه بل أخذت ترسم الأزهار.

_____

_____

الكرّاز... العبقريّ

١ – ما الفكرة الأساسيّة الّتي عرضتها الكاتبة في مقدّمة هذه القصّة؟

---

٢ – أكتب مقدّمة للقصّة تتناول فيها فكرة أخرى.

---

٣ – من هو «بتهوڤن» وماذا تعرف عنه؟

---

٤ – أذكر أسماء بعض المشاهير في مضمار الموسيقى.

---

٥ – إستخرج من قصّة الرّاعي وكرّازه، الكلمات الّتي تدلّ على المفاجأة.

---

٦ – «فقد استطاع الكرّاز التشيكيّ أن يمحو اللعنة عن بني جنسه ويبدّل المفاهيم لصالحه». إشرح هذه العبارة محلّلًا.

---

٧ – خذ من النّصّ خمسة أفعال تُستعمل دائمًا مع أحرف الجرّ، وخمسة أفعال أخرى تستعمل من دون أحرف الجرّ.

---

٨ – ما وزن كلٍّ من: تماثيل – فنّان خارج – قديم.

---

٩ – إستخرج من النّصّ حالًا مفردة، وخبرًا لأنّ يكون جملة فعليّة.

---

١٠ – أكتب قصّة صغيرة تعتمد فيها على عنصر المفاجأة. وضع خطًّا تحت الكلمات الّتي تدلّ على ذلك.

يد القانون

١ – ماذا قصدت الكاتبة بعبارة: «للصّقيع في تلك البلاد أكثر من مخلب وناب»؟ ما هي الصّورة البيانيّة الّتي تتضمّنها هذه العبارة؟ خذ صورة أخرى تشبهها من النّصّ.

---

٢ – ما أهمّيّة القانون في حياة البشر ومجتمعاتهم؟

---

٣ – متى يصبح القانون جزءًا لا يتجزّأ من حياة الإنسان؟ حلّل مُستندًا إلى رأي الكاتبة.

---

٤ – ما هو الأسلوب الّذي اعتمدته الكاتبة لنقل أفكارها إلى القارئ؟ خذ من النصّ شواهد وأمثلة. (ألفاظ، تراكيب، وسياق قصصيّ).

---

٥ – إستخرج أدوات الرّبط من الفصل الأخير، مبيّنًا براعة الكاتبة في استخدامها.

---

٦ – أذكر بعض مشتقّات الفعل «رضي» ومزيداته.

بداية... في الثّمانين

١ – إشرح ما يلي:

بياض اللِّمَّة :

سخاء التّجاعيد :

تتشنّج قرائحهم:

روافد العمر :

٢ – وردت على لسان المرأة العجوز عِبَر حياتيّة مهمّة. إنتقِ واحدة منها وحلّلها.

---

٣ – من هو، في رأي الكاتبة، الإنسان الّذي يمكنه الاستفادة من مدرسة الحياة؟

---

٤ – إختصر قصّة حياة تلك المرأة العجوز في بضعة أسطر.

٥ – ألّف نصًّا يتضمّن التّراكيب التّالية: اقتربت أسلّم (يمكن تغيير الفعل أسلّم) – لفتني في... – ما على... إلّا أن... – أبى إلّا أن...

٦ – إستعمل كلّ فعل من الأفعال التّالية في سياقين مختلفين:

التقط : ختم :

خاض : أقام :

طبق محشيّ ملفوف

١ – كيف بدت لك الخالة «بهيّة» من خلال حديث الكاتبة؟

---

٢ – إستنتج من خلال هذه الأقصوصة أهمّ ما تتميّز به شخصيّة الكاتبة؟

---

٣ – هل بدا لك فعلًا أن قصّة «طبق الملفوف» كانت قصّة مؤلمة؟ لماذا؟

---

٤ – ما معنى كلمة «أقصوصة»؟ وما الفرق بين الأقصوصة و«القصّة»؟

---

٥ – ما هي أهمّ مميّزات أقصوصة «طبق محشيّ ملفوف» من حيث المبنى؟

---

٦ – إستخرج من هذه الأقصوصة ما يدلّ على واقعيّتها (ألفاظ – تراكيب – تعابير – أفكار...).

---

٧ – تحدّث عن طريقة إعداد «طبق طعام شهيّ» بأسلوب أدبي، على غرار الكاتبة.

---

٨ – ما جمع كل من: تبعة – مشهد – ذكرى – طريقة.

---

٩ – ما هي الأفعال الّتي اشتقّت منها الكلمات التّالية:

إحترام – مُصِرّة – تأثّر – ترتيب – حازم.

الفهرس

حسّون الغربة ٥

الجبّار ١٥

المدينة والحلم ٢٩

بكاء في غابة شماليّة ٤١

طبيب مغربيّ ٤٩

المغترب الرائد ٦١

«شوف تفرّج يا سلام» ٧٣

بطاقة معايدة ٨٥

الكرّاز العبقريّ ٩١

يدُ القانون ١٠٣

بداية في الثّمانين ١١٥

طبق «محشي ملفوف» ١٢٧